إدغار موران

دروس قرنٍ من الحياة

ترجمة: خليد كدري

1184

مكتبة



دروس قرنٍ من الحياة



الكتاب

دروس قرنٍ من الحياة

المؤلّف

إدغار موران

الطّبعة الأولى:2022

التّرقيم الدّوليّ

978-603-91708-4-6

رقم الإيداع

1443/4133



t.me/soramnqraa

E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل ، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية

Leçons d'un siècle de vie

Edgar Morin

مكتبة | 1184

دروس قرنٍ من الحياة

تاليف:

إدغار موران

ترجمة: د. خليد كدري

صفحة



المحتويات

كلمة المترجم



كنا ننتوي كتابة مقدمة نقدية لهذا الكتاب، الذي قيل إنه «سيرة ذاتية» – وهو وصف شديد الاختزال من دون شك –، لكنّنا أعرضنا عن ذلك في آخر المطاف، واكتفينا بكلمةٍ قصيرة عن مسلكنا في الترجمة العربية؛ ذلك لأن تقديمًا نقديًّا من بضع صفحات لا يسعه، مَهْمَا تحذّق وتمهّر، أن يُوَفِّيَ كتابًا من هذا القبيل حقَّه. إن إدراك هذا الأمر رهينٌ بقراءة الكتاب قبل كل شيء. ولا نعتقد، إزاء مثل هذه النصوص الاستثنائية، أن مقالات الكُتّاب أحسنُ حالاً بكثيرٍ من مقدمات المترجمين.

صدر الكتاب، كما هو معلوم، عن دار النشر الباريسية «دونويل»، في الثاني من يونيو/ حزيران 2021، أي قبل شهر وبضع شهر من احتفال المؤلف بعيد ميلاده المائة الذي وافق الثامن من يوليو/ تموز 2021؛ وهو أحدث كتبه، ولا نقول آخرها – أطال الله في عمر صديق العرب ونصير المستضعفين –، وينضاف إلى مؤلفاته الأخرى التي جاوز عددها المائة بكثيرٍ، وتُرجمتْ إلى نحوٍ من ثمانٍ وعشرين لغة بما في ذلك لغة الضاد.

أما فيما يتعلق بمسلكنا في ترجمة الكتاب، فنذكر أننا، في ظل غياب معجم عربي علمي موحّد في حقل الإنسانيات، دافعنا عن طائفة من اختياراتنا التّرجمية من خلال شروح وملاحظات في الهوامش، وأننا اضطررنا إلى الاجتهاد في أحيان عديدة، وبخاصّة حين نصادف مقابلات

عربية مُرتَجَلة أو غير دقيقة، ولا سند لها سوى قوة الشيوع. وقد لا نعثر، أحيانًا، على أي مقابل عربي للمصطلح الأجنبي في معاجمنا ومؤلفاتنا، مع أن مجامعنا ومؤسّساتنا ومراكزنا وأقسامنا الجامعية ودورياتنا العربية، التي يُفترض أن تتصدى للأمر، لا يكاد يحصيها عدد!

ويجد القارئ في عدد من الهوامش، كما ذكرنا، مسوّغات اختياراتنا واجتهاداتنا في ترجمة أو تعريب الألفاظ المعنية بالأمر. ولتمييزها عن هوامش المؤلف، ختمناها بكلمة المترجم مجعولة بين قوسين معقوفين، هكذا: [المترجم].

وقد ذيّلنا الترجمة بقائمة بمعظم المصطلحات وأسماء الأعلام والأماكن المذكورة في الكتاب الفرنسي؛ وتشتمل على الألفاظ المترجمة أو المعربة، مرتّبةً على حروف الهجاء العربية، مع مقابلاتها الأجنبية كما وردت في الأصل.

ولا يسعنا، في الختام، إلا أن نتوجه بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لدار النشر صفحة سبعة التي حرصت بأريحيَّتها المعهودةِ على نشر هذه الترجمة. والله المستعان على كل حال.

د. خليد كدري

الاثنين 8 نوفمبر/ تشرين الثاني 2021

الجديدة-المغرب

ديباجة

ليكن مفهومًا أنني لا أعطي هاهُنا دروسًا لأحد. وإنما أحاول أن أستخلصَ دروسَ تجربةِ حياةٍ قرنية ودنيوية، راجيًا أن تكون مفيدة لكلّ امرئٍ، لا في مساءلة نفسه عن حياته الخاصّة فحسب، ولكن في العثور على طريقه الخاصّة أيضًا.

1

الهوية واحدة ومتعددة

من أنا؟ جوابي: أنا إنسانٌ. هذا هو اسمُ ذَاتِي. لكنني أحمل صفات عديدة، تتفاوت أهميتها بحسب الظروف؛ أنا فرنسي، من أصل يهودي سفاردي، إيطالي وإسباني جزئيًّا، متوسطي للغاية، أوروبي الثقافة، مواطن عالمي، ابن الأرض-الوطن. هل يسع المرء أن يكون كل هذا في الوقت نفسه؟ كَلاّ، إنما الأمر رَهْنٌ بالظروف والأحايِين، حيث تسود تارة هذه، وتارة تلك، من الهويات المذكورة.

كيف يسع المرء أن يحمل هويات عديدة؟ الجواب: هذا في الواقع ما جرى عليه الحال. يحمل كل امرئٍ هوية عائلته، وهوية قريته أو مدينته، وهوية منطقته أو إثنيته، وهوية بلده، وأخيرًا هوية قارّته الأوسع نطاقًا. يحمل كل امرئٍ هوية معقدة، أعني واحدة ومتعددة في الوقت نفسه.

هويتي الواحدة والمتعددة

وعيْتُ هويتي الواحدةَ والمتعددةَ على نحو متدرّج. لم يكن أبواي

المهاجران يحملان هوية قومية[1]. كانا يحملان هوية إثنية-دينية سفاردية، وهوية مدينةٍ، هي سالونيكا، واحة السلام في الإمبراطورية العثمانية منذ سنة 1492، حيث كان معظم سكانها من اليهود. وبخلاف ما جرى لليونان والصرب والألبان، الذين قهرهم الأتراك واستعمروا بلادهم، حظي اليهود هنالك بحسن الوفادة، ولم تَطُلهم لا تجاوزات الانكشارية ولا اضطهادات العثمانيين. وقد أتى بعضهم من توسكانا (ليفورنو) في بداية القرن التاسع عشر، جالبين معهم الأفكار العلمانية والرأسمالية ثم الاشتراكية. لذلك، كان سالومون بيريسي، جدّي لأمّي، مفكرًا حرًّا بلا مواربة، ولقّن أولاده أخلاقًا لا محل فيها للإله. ولم يكن أبي، الشاب وقتئذٍ، يحلم بغير باريس. وكانت البرجوازية السفاردية في سالونيكا تتكلم بالفرنسية، علاوة على القشتالية القديمة المعروفة عند أهلها باسم «جيديو»، وعند غيرهم باسم الإسبانية اليهودية.

لقد وُلدت في فرنسا، ولم أرث أيّ جنسية أجنبية. كان أبواي يحملان هويةَ مدينةٍ يتوسّط اسمها دارةً جُعلت على ظهر هويتهما الفرنسية الجديدة. كانا يتكلمان بالجيديو في البيت، من دون أن يكلماني بها مطلقًا، لكنني فَقِهْت تلك الإسبانية سماعًا. ولقد عجبتُ في إسبانيا من قدرتي على فهم اللغة جزئيًّا، والتكلم بها على نحو يزيد أو يقل سوءًا. ثم إنني

1. ترجمة: (nationale)؛ وعلى هذا النحو نترجم جميع مشتقات الاسم (Nation)، من أجل تمييزها عن مشتقات الاسم (Patrie). وقد ورد النعتان (nationale) و(patriote) متجاورين في بعض المواضع، فكان لا بدّ من مراعاة الاشتقاق؛ وعلى ذلك سِرْنَا في ترجمة الكتاب كلّه، ولو أدّى الأمر إلى مخالفة الشائع. [المترجم]

سَعِدت للغاية من تنمية قدرتي على استعمال القشتالية في إسبانيا وأمريكا اللاتينية. لقد أَيقَظَ هذا الأمر في نفسي – أنا الذي كنت أَحْسَبُ أنني أنحدر رَأْسًا من أولئك الذين طردتهم إيزابيلا الكاثوليكيّة في سنة 1492 – قلت: أَيقَظَ في نفسي هويةً إسبانية – هوية أستطيع، أيضًا، أن أطالب بها قانونيًّا، وهذا ما عُرض عليّ رسميًّا مَرّاتٍ عَدِيدَة.

لا غرو أن أصبحتُ فرنسيًّا في سني الطفولة، إذ إن أبويّ كانا يكلماني بالفرنسيّة، وفي المدرسة تَمَلَّكَ عقلي تاريخ فرنسا واحتواه. شعرت بأن هذا التاريخ هو تاريخي، وكانت تغمرني انفعالات جيّاشة عند ذكر أسماء وأحداث من قَبِيل فرسانجيتوريكس، معركة بوفين، جان دارك، مقتل هنري الرابع، الثورة، معركة فالمي، الحملة الإيطالية الأولى، معركة أوسترليتز، نابليون المُمجَّد ونابليون المنكسر في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة، ثورة 1848، حرب 1870، كومونة باريس وحرب 1914–1918. لم أكن مدركًا البتة لخفايا هذا التاريخ، ولكنْ كنت متأثرًا بانتصاراته وهزائمه، بأمجاده وأشجانه. وكابدتُ صنوفًا من المعاناة تحملتها فرنسا، وبخاصّةٍ خلال حرب المائة سنة التي كانت فيها على شفا حفرة من الزوال. لذلك، وباعتبار تأصّلي في هذا التاريخ، أشعر في عمق كياني بأنني فرنسيّ.

وفي الوقت نفسه، اكتشفت أنني يهودي. فعلى الرغم من أن أبويّ كانا عَلْمَانِيَّيْن، فقد كانا يشركاني في عشاء عيد الفصح في بيت جدتي، حيث يجري الاحتفال بهذه المناسبة على الطريقة الإسبانية اليهودية بحضور الحاخام براحيا. لقد خضعت للختان، من دون دراية مني

طبعًا، غير أن أبي لم يهيئني لطقس البلوغ، بار متسفا، الذي يقام في الكنيس، ويتطلب مني أن أتعلم يسيرًا من العبرية وبعض الصلوات. ولَمَّا ألح عليه أحد أصهاره الأتقياء في الأمر، قبِلَ على مَضَض بحل وسط؛ وذلك أنه طلب من حاخام الكنيس الكائن في شارع بيفو أن يُجري الطقس من دون تهيئة، متذرّعًا بأنني طفل يتيم محروم. لذلك، كان عليّ أن أردّد الكلمات العبرية التي كان يهمس بها إليّ الحاخام، وأُدْلِيَ ببيان وجيز بالفرنسيّة أتعهد فيه باحترام عائلتي على الدوام.

لقد سُئِلْتُ عن ديني من قِبَل رفاقي في المدرسة الثانوية على الخصوص، حيث كان يوجد في صفي كاثوليكيون وبعض البروتستانتيين وخمسة من اليهود، علاوة على أبناء مفكرين أحرار. كنت يهوديًّا إذن؛ لكن هذه الهوية كانت خالية من أيّ محتوى ثقافي. وكانوا، على الخصوص، ينظرون إليها بوصفها شيئًا غريبًا، بحسب بعضهم، وشيئًا قبيحًا بحسب آخرين ممن ورثوا نزعة مناهضة السامية عن آبائهم.

وعلى الرغم من أنني لم أتعرض في شبابي إلا للقليل جدّا من صنوف الإساءة لشخصي، فإنني كابدتُ نزعةَ مناهضة السامية، الشّرسةَ للغاية، التي انتصبت لها الصحافة اليمينية، كما كابدتُها لاحقًا في ظل نظام فيشي، من دون أن يتزعزع من جَرّائها تعلقي الجوّاني بهويتي الفرنسية التي ما فتئت تزداد ارتباطًا بالتقليد الإنسيّ الممتد من مونتين إلى هوغو.

في الواقع، لقد ضَمُرَ وعيي اليهودي خلال بحثي عن وعي سياسي إنسيّ يلتمس طريقًا في ظل أزمة الديمقراطية، ضد الفاشية وضد الستالينية. كنت في السابعة عشرة من عمري حين حرم النازيون اليهودَ الألمان من حقوقهم المدنية، ونظّموا ليلة البلور في نوفمبر/ تشرين الثاني من سنة 1938. بقيت محبًّا للسلام، مُتشوِّقًا إلى الحفاظ على وجهة نظر عالمية بدلاً من تمني إعلان الحرب، بواعزٍ من يهوديتي، على ألمانيا.

في ظل الاحتلال، وخلال المقاومة ثم بعد الحرب، استيقظت الهوية اليهودية ثم اختفت. فبعد أن اتخذتُ لي، خلال المقاومة، اسمًا مستعارًا، وهو موران، راودتني الرغبة، بعد انتهاء الحرب، في تغيير هويتي بصورة قانونية، على غرار ما فعل آخرون، لكنني أبقيت اسم ناحوم على بطاقة هويتي، مضيفًا إليه «الملقب بموران». وأخيرًا، مثلما عشتُ مأساة المحاكمات الشيوعية التي شهدتها تلك الفترة، تابعتُ من بعيدٍ حرب استقلال إسرائيل سعيدًا بأن يكذّب المقاتلون ومستوطنو الكيبوتسات أسطورةَ[2] اليهودي التاجر والرِّعْدِيد.

---

2. ترجمة: (mythe)؛ ونعتقد أن تعريبها «ميثة» أسلم. لكننا نترجمها هاهنا، على مضض، بكلمة «أسطورة»، وذلك حرصًا منّا على عدم إرباك شريحة عريضة من القراء، إذ لا يخفى ما للشيوع من سلطان في ظل غياب معجم عربي علمي موحّد في حقل الإنسانيات. وقد يضاف إلى ذلك أن المؤلف نفسه يستعمل الكلمة بمعان مختلفة، ولا يتقيد بمعنى فلسفي أو أنثربولوجي محدد. ونشير إلى أن «أسطورة» في اللغة العربية إنما تقابل كلمة (légende) لا كلمة (mythe)؛ انظر مقدمة ترجمتنا العربية لكتاب: كلود ليفي-ستروس، **وجه القمر**

وخلال مدة مُقامي في إسرائيل سنة 1965، أي قبل حرب الأيام الستة، اكتشفت الكراهية المتبادلة بين اليهود والعرب. لقد هجرت البحث عن جذوري في هذه الأمة. ثم إن هيمنة إسرائيل على الشعب العربي في فلسطين قد ورّطتني، مرة أخرى، بوصفي يهوديًّا، ولكنْ من حيث كوني أحد أواخر المثقفين اليهود الحاملين للنزعة العالمية والمناهضين للاستعمار، ومن ثم المعارضين لاستعمار فلسطين العربية. وقد جرّت علي المقالات التي كتبتها وقتئذٍ في صحيفة **لوموند**، والتي لم أعترض فيها البتة على وجود إسرائيل، تهمة الخيانة، لا بل مناهضة السامية.

لقد ألفت كتاب **فيدال وآله**[3] أُجِلُّ فيه أبي وأسلافي، وهذا يُسفِّه كل اتهام لي بالكراهية، بما في ذلك كراهية الذات.

لم اعترض قطُّ على حق دولة إسرائيل في الوجود، ولم تغبْ عن وعيي المخاطرُ التاريخية التي أحدقت بالأمة الإسرائيلية أو يمكن أن تحدق بها في المستقبل.

وفي المقابل، انتقدتُ القمع الذي يمارسه الجيش أو البوليس الإسرائيليان في حق الفلسطينيين، واعترفت بحق هؤلاء في إقامة دولة قومية طبقًا لقرارات الأمم المتحدة واتفاقيات أوسلو الميِّتة. ولقد كانت أمنيتي الحقّة هي أمنية مارتن بوبر نفسها، أعني أمة مشتركة بين اليهود

الآخر، كتابات عن اليابان، ترجمة د. خليد كدري، المملكة العربية السعودية: صفحة سبعة للنشر والتوزيع، 2021. [المترجم]

3. إدغار موران، *Vidal et les siens* ، باريس: Seuil، 1986.

والعرب.

إنني أعلم، بدلالة التجربة التاريخية والمعيشة، أن الشعب الذي يستعمر شعبًا آخر يميل إلى ازدرائه. لكننا غالبًا ما نلفي، في صفوف الشعب المستعمِر، أقلية متعاطِفة ومؤازِرة، وكذلك الحال هاهنا.

وأعتقد أنني، بعملي ذي التوجه العالمي، أُشَرِّف الهوية اليهودية أكثر من أولئك الذين يشتمون الناس ويفترون عليهم باسم هوية مغلقة وحصرية.

إنني، إذ أعترف بمَحتِدي اليهودي، وإذ أؤكد أنني أنتمي إلى الشعب الملعون، لا إلى الشعب المختار، أعرّف نفسي بأنني ما-بعد-مَرَّانِي، أعني ابن مونتين (ذي الأصل اليهودي) وسبينوزا الذي حرمه الكنيس.

إسباني، إيطالي وأوروبي

إن هويتي الإسبانية مأتاها من القشتالية القديمة التي كانت تتكلم بها عائلتي، ومن ولعي بمسرح وأدب العصر الذهبي، عصر غارثيا لوركا وأنطونيو ماتشادو، ومن إقاماتي في إسبانيا على الخصوص، وفي الأندلس تحديدًا، حيث عثرت هنالك على أقوات أصيلة. غير أن هويتي الإيطالية صارت نَشِطة للغاية، لا لأنني شعرت في توسكانا وكأنني قد عثرت على أرض الأسلاف، وأن إيطاليا غمرت كياني، فحسب، ولكنْ لأن عائلتَيَّ من جهة أمي، آل بيريسي وآل موريسي، من أرومة إيطالية أيضًا. وحتى آل ناحوم أقاموا زمنًا في توسكانا، حيث

أسهم أحدهم في حركة **توحيد إيطاليا**. وعلاوة على ذلك، حصلت عائلتي، آل ناحوم، على الجنسية الإيطالية في سالونيكا ما إن أصبحت إيطاليا دولة موحدة ومستقلة.

وكما أن رئيس الوزراء فيليبي غونزاليس رغب في أن أستعيد هويتي الإسبانية، كذلك عرضت عليّ مدينة ليفورنو صفة المواطن الشرفي.

لقد أصبحت مواطنًا أوروبيًّا، بالمعنى السياسي، في سنة 1973، حين اكتشفت أن أوروبا المهيمنةَ على العالم، والقوةَ الاستعمارية عديمةَ الإنسانية، قد صارت كيانًا هَرِمًا بائس الحال، إذ فقدت مستعمراتها وما عادت تستطيع البقاء من دون مَدَد النفط الشرق-أوسطي. غير أن آمالي الأوروبيةَ ضَعُفَت بسبب تبعية المؤسسات الأوروبيةَ للقوى التقنية-البيروقراطية ثم المالية. وأخيرًا، اكتملت خيبة آمالي بسبب الخلافات الناشئة بين الديمقراطيات الشعبية السابقة والبلدان المؤسِّسة، والضغط المدمِّر لسلطات الاتحاد الأوروبي على حكومة تسيبراس اليونانية، والموقف العام حِيَال النازحين من أفغانستان وسوريا.

وآمل ألا يتفتَّتَ ما تبقى، لكنني فقدت الإيمان بأوروبا.

لقد جعلتني ثقافتي الإنسيّة، منذ سني يفاعتي، مهمومًا بمصير الإنسانية. حين سألني فيليب دوشارتر، أحد قادة حركة المقاومة التي انضممتُ إليها، عن الدافع الذي حملني على الانخراط في الكفاح السري، أجبته بأنني فعلت ذلك لا من أجل تحرير فرنسا فحسب، ولكنْ من أجل الإسهام أيضًا في كفاح الإنسانية قاطبة في سبيل انعتاقها

– الأمر الذي كنت أخلط بينه وبين الشيوعية.

وما إن ارتفع هذا اللَّبْس حتى انضممتُ، نحو 1952–1953، إلى منظمة مواطني العالم التي حافظتُ على بطاقة عضويتي فيها. ثم إنني أدركت بأننا نعيش تطوّرات العصر الكوكبي الذي بدأ في سنة 1492، مستعيرًا هذا المصطلح من هايدغر. وفي مجلة **أرغيمون**، تجرّدتُ لمشكلات ما كان يُسمّى في ذلك الوقت بالعالم الثالث. وفي سنة 1993، ألّفتُ ونشرتُ كتاب **الأرض–الوطن**(4)، ثم إنني أصبحتُ نصيرًا لعولمة بديلة، مدركًا في الوقت نفسه أن العولمة التقنية–الاقتصادية قد أشركت بني الإنسان جميعًا في مصير واحد. من طريق الأرض–الوطن ووحدة المصير، إذن، أُنِيبُ إلى هويتي الأولى الجوهرية، أعني هوية الإنسان.

تداخل الهويات

في باريس، أيام المقاومة، حملت اسم غاستون بونسي، بحسب بطاقة هويتي التي جعلتها لبوّابة العمارة ولمناسبات المراقبة البوليسية، وكان اسمي موران بالنسبة إلى رفاقي في المقاومة، بينما كنتُ ناحوم حين أراسل أبي أو حين ألتقي بأحد أقاربي.

وقد حدث مرة أن انقلبت هوية إلى أخرى على غِرّة.

لقد رافقتُ، ذات يوم، مُومِسًا جميلة إلى فندق في حي بيغال كان

4 . بالاشتراك مع آن-بريجيت كيرن، *Terre-Patrie*، باريس: Seuil، 1993.

يرتاده الضباط الألمان. وحين أمسكَتْ قضيبي، أدركتُ وقد تملكني الذعر أنني مختون. بذلت المُومِس قصارى جهدها ابتغاء شدّ أزر عضوٍ منهار تمامًا. ولَّما فشل مسعاها، قصدتْ مشمئزةً إحدى الغرف المجاورة لممارسة الجنس مع الجنود. ارتديتُ ملابسي، وغادرتُ الفندق بِحَذَر؛ لقد ظهر ناحوم على غِرّة وطرد موران.

وبعد التحرير، عاد اسمي ناحوم مجدّدًا فيما يتعلق بكل ما هو رسمي، وعلى بطاقة هويتي وجواز سفري. إنني لا أخفي هذا الاسم، والمقالات المكتوبة عن شخصي تذكره، حتى إن بعضها يَكبِس الأجيال كَبْسًا، فيقول إنني أنحدر من سالونيكا. لكنني، في نهاية المطاف، سعيدٌ بأن أكون، من حيث الهوية، ابن أبي وابن أعمالي في آن معًا. كنت أرغب في الحفاظ على اسم بيريسي رسميًّا، عائلتي من جهة أمي التي أرتبط بها ارتباطًا عميقًا، غير أنني لم أفكر في ذلك في الوقت المناسب.

وأخيرًا، لقد عشتُ هويتي المتعددة لا بوصفها شذوذًا، بل بوصفها ثروة. تتعاقب هذه الهويات على أنحاء شتى، تبعًا للأحوال الداخلية أو الخارجية، في أناي وفي الـ«إدغار» الذي يدمجها دمجًا.

هوية عائلية

كان لأبويّ ستة أو سبعة من الأشقاء والشقائق. عاشوا طوال حياتهم متآزرين. ولم ينجب أزواج جيلي سوى طفل أو طفلين. ولَّما انتهت العائلة الكبيرة، وهنت الروابط. وبوصفي طفلاً وحيدًا، كنت ألتقي بأعمامي وعماتي وبني عمومتي أحيانًا؛ وقد نسجت بعض

العلاقات الوجدانية النادرة مع طائفة منهم.

لقد فاقم موتُ أمي لُونَا، وأنا ابن عشر سنوات، من عزلتي. لم يَتبَقَّ منها سوى حضور أسطوري جليل، ولكنْ من دون نظير مادي. أما الحماية المفرطة التي كان أبي يحيط بها ابنه الوحيد، فقد عشتها بوصفها استعبادًا تحررت منه ما إن سنحت لي الفرصة. لقد عشتُ حقًّا خارج العائلة، في المدرسة، في السينما، في الكتب، في الشوارع. هنالك تَأَدَّبتُ وتعلمت حقائقي.

تزوّجت، وصرت أبا طفلتين لم أَسْعَ في تأديبهما، اعتقادا منّي أنّ لا شيء أفضل من التأدّب الذاتي الذي خَبَرْتُه. ثمّ إن طلاقي من فيوليت حين بلغتا إحدى عشرة واثنتي عشرة سنة، علاوة على حياتي الغرامية وهواجسي الفكريّة والسياسيّة، قد علّق، في أحيان كثيرة، علاقاتنا من دون أن ينهيها. لم أكن ابنًا جيّدًا ولا أبا جيّدًا، لكنني كنت زوجًا محبوبًا ومحبًّا.

وعلى مرّ الوقت، لم أصالح أبي بِالتَّدَرُّج فحسب، ولكنْ دمجته في كياني أيضًا. وحين وافته المنية، شعرتُ بالخجل الشديد لأنني لم أقدّره كما ينبغي، وبما هو أهل له، حتى إنني كرّست لشخصه وسيرته في الحياة كتابًا. وعلى الرغم من أن وفاته، التي حدثت في سنة 1984، ما فتئت تنأى عني زمنيًّا، فإن وجوده في جَوَّتي ما فَتِئَ يزداد قربًا ودناوة. كان وجهي يشبه وجه أمي، وقد صار اليومَ يشبه وجه أبي. حين أرى، على غِرّة، بعضَ صوري الحديثة بمعية صباح، ينتابني شعورٌ خاطف بأنني هو وليس أنا. إن أبي يعيش داخلي وقد بلغتُ التاسعة والتسعين.

لقد اشتد شوقي، في بحر السنين الأخيرة، إلى استعادة جو الحياة العائلية بمعية بناتي. إنما مَثلي كَمَثَلِ شخصية **البغل** التي أداها كلينت إيستوود، إذ سلخ عمره في البستنة والمشاركة في مسابقات الزهور، متجاهلاً القرانات والاحتفالات العائلية، فما عاد يصبو بعدئذٍ إلى غير شِرْكَته الدافئة. صحيح أن ألوانًا من سوء التفاهم مع ابنتي فيرونيك قد تبدّدت، وأن ابنتي إيرين تتقبَّلني كما أنا، لكن انتياطي في مونبلييه، وتدابير الحجر المترتبة عن وباء كوفيد الشامل، ثم دخولي المستشفى مرارًا، وفترة النقاهة التي أمضيتها في المغرب، كل ذلك حال دون تحقق أمنيتي. لقد حرمتني مغامرات حياتي، وأهوائي الغرامية والفكرية، فضلاً عن تَقْصِيراتي، من هذا الشيء الرائع الذي تمثله العائلة المتآلفة.

لم أستطع تكوين عائلة، ذلك لأن زيجاتي الثلاث المتقدمة على زيجتي الأخيرة كانت، في الوقت نفسه، طويلة بما يكفي (ثماني عشرة سنة، ست عشرة سنة وثمان وعشرون سنة) لأتمكن من الاندماج في عائلة أجنبية ابتداءً، وقصيرة للغاية بحيث ما كان يسعني الاستمرار فيها على نحو دائم. لكنني أحببت، بفضل كل واحدة من زوجاتي، عوالمَ كانت جديدة بالنسبة إليّ: ريف منطقة بيريغور بمعية فيوليت، وكيبيك في زمن ثورتها الهادئة، علاوة على الوضع الأفرو-أمريكي، بمعية جوان، والطبقة الطبية العليا بمعية إدفيج، ثم أخيرًا، من الآن فصاعدًا، الحياة الفكرية الفرنسية-المغربية، بمعية صباح.

وعلى الرغم من أنني كنت زوجًا محبوبًا ومحبًّا، فإن التطورات المتباينة لشخصياتنا أدّت إلى طلاقي من كل من فيوليت وجوان، ولكنْ مع

صون دوام الصلة إلى غاية وفاتها. والموت وحده هو الذي فرّق بيني وبين إدفيج في سنة 2008.

وفي الوقت الذي كنت اعتقدت فيه أنني منذورٌ للعيش بمفردي من دون مناص، كان اللقاء المذهل الذي جمعني بصباح، من باب المصادفة الأقل احتمالاً، وذلك خلال مهرجان مدينة فاس للموسيقى العالمية العريقة المنعقد في سنة 2009. كان لقاءً مصيريًّا، ذلك لأنه، على الرغم من فارق الأربعين سنة، فقد تقاسمنا المصير نفسه. حين كانت صباح في العاشرة من عمرها، فقدت أباها العزيز، مثلما فقدتُ أنا أمي الحبيبة في العمر نفسه. لقد كوّنتْ نفسَها مثلما بنيتُ أنا نفسي في ظل العزلة وعدم اكتراث العائلة. وتأثرنا بقراءات مشتركة مدى الحياة، مثل قراءة دوستويفسكي. وكلانا ناضل سرًّا، أنا في المقاومة، وهي خلال سنوات الرصاص تحت حكم الحسن الثاني. ولقد ساعدها انقشاع الوهم الذي عبّرتُ عنه في كتاب **النقد الذاتي**[5] على تخلّصها من أوهامها.

لقد صارت أستاذة جامعية، ونهلت من كتبي، وارتاحت للمواقف التي اتخذتُها حِيَال أحداث الشرق الأوسط المأساوية.

لقد ارتبطنا بأعمق الروابط الممكنة في الوجود.

إنني مدين لها، لا بالخلاص من عِبء البقاء وبدء العيش مرة أخرى فحسب، ولكنْ بالحياة نفسها في أحيان كثيرة كذلك.

---

5 . إدغار موران، *Autocritique*، باريس: Julliard، 1959.

إنها حاضرة في أعمالي، من وراء حجاب في أكثر الأحيان، بإشاراتها واقتراحاتها وتصويباتها وملاحظاتها النقدية. جامعية وباحثة ضحت بإسهامها المبتكر في السوسيولوجيا الحضرية لتنذر نفسها لوجودي ولفكري الذي بات مشتركا بيننا.

يا لروعة شعوري حِيَال أعجوبة الحب اليومي، من قُبلة الصباح إلى قُبلة المساء! ويا لروعة إدراكي أن حنانها الدؤوب سيرافق خُطاي صوب مائوية غير مؤكّدة!

وحدة الشخصية المتعددة

لا أحد من الناس يبقى هو نفسه في دَفْق الحنان الذي تتفتّح خلاله شخصيةٌ مُحِبّة، وفي سَوْرَة الغضب التي تظهر خلالها شخصيةٌ عنيفة. لقد أذهلتني، في كتاب **صميم الموضوع**[6]، الذي ألّفته خلال سنتي 1961-1962، حالاتُ الشخصية المزدوجة أو المتعددة، حيث يغيّر المرء وجهَه ومزاجَه ومسلكَه في الكتابة متحوّلاً، بصورة لاواعية، من ذاتٍ إلى أخرى. ويَظهر هذا الأمرُ بجلاءٍ على أولئك الذين ننعتهم بثنائيي القطب، أو الهوسيّين الاكتئابيين. يصير الشخصُ نفسُه متفائلاً، مُتحمّسًا، مفرطَ النشاط وجريئًا، ثم لا يلبث أن ينقلب، خلال الطور النقيض، إلى شخص مكتئبٍ، متشائم، خَرِيعٍ وخامل. ويمكن للشخصِ نفسِه أن يتحوّل، حِيَال المحبوب، من صبابة العشق إلى وابل النقد والعتاب والتبكيت. ما عاد هو الشخصَ نفسَه، وإن كان كِلاَ

---

6. إدغار موران، *Vif du sujet*، باريس: Seuil، 1969.

الشخصيْن يشغلان بالتَّعاقُب الذاتَ-الأنَا نفسَها. كأن العبور من حالة عقلية أو عاطفية إلى أخرى يبلور شخصية متماسكة، ذات سمات متفردة، لكنها منذورة للاختفاء والظهور من جديد.

وأعتقد أن هذا الأمر يجري، ولكنْ بدرجة أقل، على كل واحد منا. وهو ما أشعر به حين يَدهَمني شجن الشوق إلى أمي أحيانًا، وحين يفعمني مرح أبي الجَذْلان أحيانًا أخرى. أشعر تارة بأنني خامِل، وتارة أخرى بأنني مفرط النَّشاط، وأحيانًا بأنني وَسْنان، وأحيانًا أخرى بأنني يقظان. وتستبد بي أحوال من الغيبة والافتتان في خضم الانفعالات الجمالية؛ أشعر بأن قوة عليا، جوانية وبرانية، في الوقت نفسه، تسيطر على كياني حين أنبري لتحرير كتاب. وفي أعقاب كل نوبة غضب، أعلم أنه قد استحوذ عليّ شيطاني.

مساري الفكري وحيدًا

لقد صادف كتابي الأول، **السنة الصفر في تاريخ ألمانيا**[7]، الذي يتحدث عن تجاربي خلال سنتي 1945 إلى 1946 في ألمانيا المدمَّرة والمضطربة، استقبالًا جيّدًا. وإذا كان قد أثار حفيظة بعض علماء الجرمانيات، فإنه ما كان يوجد شخص آخر لبحث هذه اللحظة الفريدة والعجيبة في التاريخ الألماني. وبالمثل، إن كتابي **الإنسان والموت**[8]، وهو باكورة أهم أعمالي حيث دشّنتُ نمط معرفتي العابر للمعارف، لم يخضع

7. إدغار موران، *L'An zéro de l'Allemagne*، باريس: La Cité universelle، 1946.

8. إدغار موران، *L'Homme et la Mort*، باريس: Corréa، 1951؛ باريس: Seuil (طبعة مزيدة ومنقحة) 1976.

لأيّ نقد متخصّص، ذلك لأنه لم يسبق لأحد، حتى ذلك الحين، أن عالج المواقف الإنسانية المتناقضة حِيَال الموت من منظور التاريخ والسوسيولوجيا وعلم النفس في آن معًا. وكذلك كان شأن كتابي عن أنثربولوجيا السينما الذي لم يثر اهتمام أحد، ثم كتابي عن نجوم الشاشة، وهي شخوص شبه أسطورية لم يسبق أن استرعت اهتمام السوسيولوجيين.

وفي المقابل، عندما شرعتُ لاحقًا في تأليف سلسلة كتب **المنهج**[9]، وَجَدْتُني في أكثر الأحيان عرضةً لسوء التقدير من قِبَل بعض مُلاَّك عقارات المعرفة، وشنعوا بي بوصفي غيرَ كفء أو مُبَسِّط معارف، والحال أنني كنت أعيدُ تفسير وربط المعارف المتفرقة، وأصوغ المنهج الكفيل بمعالجة التعقيدات.

أعلم أنه وُجد ولا يزال عدد كبير من ضحايا سوء الفهم والسِّعاية. وعلى الرغم من أنني قد جُرِّحْتُ، وأنني أنتقدُ ما أعتقدُ أنها زلاّت ارتكبوها، وما أعتقدُ أنه غرورٌ من جانب بعضهم، فإنني لم أهاجم الذين هاجموني أبدًا.

لقد تعرضتُ أيضًا، بعد انفصالي عن الحزب الشيوعي، للشتائم المعتادة التي تُكال لكل مُقْصىً. وتعرضتُ لأفدح السِّعايات لأنني انتقدت سياسة إسرائيل القمعية حِيَال الشعب الفلسطيني. إن كل شخصية عمومية تستثير عداوات لا حصر لها. لكنها تحظى، أيضًا،

9. في ستة أجزاء صدرت فيما بين سنتي 1977 و2004 عن دار النشر Seuil.

بأصدقاء مجهولين...

آثرتُ أن أبقى حرًّا ومستقلاً في المركز القومي للبحث العلمي (حيث جرى تقديري إيجابًا، بناءً على كَمّ أعمالي لا على كيْفها) بدلاً من التّشوّف إلى منصب في جامعة إقليمية حيث ألبث هنالك مهووسًا بالرغبة في تعييني في باريس، حالمًا بتقاعد أو وفاة شاغلي المناصب. لم أتطلع مطلقًا إلى أيّ منصب شرفي من قَبِيل كوليج دو فرانس، ولم يساروني قطُّ أيُّ وهمٍ في شأن الأكاديمية الفرنسية. لكنني قبلت بكل فرح شهادات الدكتوراه الفخرية الثماني والثلاثين التي مُنِحتُ إيَّاهَا في الخارج.

من أنا في نهاية المطاف؟

لقد استغرق وصفي لنفسي صفحاتٍ عديدةً، مع العلم أن هذا البورتريه الذاتي الناقص يتضمن كذلك غيابَ هذا الأمرَ الذي سأشير إليه الآن.

لست مجرّد جزءٍ ضئيل من مجتمعٍ ولحظة فانية في الزمن الذي يمضي. إن المجتمع من حيث هو كلّ، بلغته وثقافته وعاداته، يوجد داخلي. وزمني الذي عشته في القرنين العشرين والحادي والعشرين إنما يوجد داخلي. ونوع الإنسان، بالمثل، يوجد بيولوجيًّا داخلي. كما أن سُلالة الثدييات والفقاريات، وسائر الحيوانات ومتعددات الخلايا، توجد داخلي.

إن الحياة، بوصفها ظاهرة أرضية، توجد داخلي. ولمَّا كان كلّ كائن حي إنما يلتئم من الجزيئات التي تتألف من اجتماع الذرات، التي هي

نفسها نتاج اتحاد الجسيمات فيما بينها، لزم أن العالم المادي برمته، وتاريخ الكون، يوجدان في جَوَّتي.

أنا كلٌّ بالنسبة إلى ذاتي، وفي الوقت نفسه، لست شيئًا تقريبًا بالنسبة إلى الكلّ. أنا إنسان واحدٌ من جملةِ ثمانية مليارات إنسان، أنا فردٌ فريدٌ وعَادِيٌّ، مختلفٌ عن الآخرين وشبيهٌ بهم في آن معًا. أنا نتاجُ أحداثٍ ولقاءاتٍ قليلة الاحتمال، عشوائيةٍ، متردّدةٍ، مباغتةٍ وغير مرتقبة. وفي الوقت نفسه، أنا هو ذاتي، فردٌ ملموسٌ، مزوَّدٌ بآلةٍ فائقةِ التعقيد وإيكو-ذاتيةِ التّنظيم[10] هي جسدي، آلةٍ غير تافهة، قادرةٍ على الاستجابة لما هو غير مرتقب وعلى خلق ما لا يُرتقب. يَمنح الدماغُ لكلّ فردٍ العقلَ والنفس، وهما غيرُ مرئيّيْن لعالم الأعصاب الذي يحلّل الدماغ، لكنهما يَنْشَآنِ في كل إنسان خلالَ علاقته بالغير وبالعالم.

كلّ امرئٍ عبارةٌ عن عالمٍ مصغّر يحملُ في طَيِّ وحدةِ أناه الذاتية غيرِ القابلة للاختزال، وغالبًا من دون وعي، ضروبَ الكلِّ المتعددةَ التي هو جزءٌ منها في كنفِ الكلّ العظيم. وهذه الضروب المتعددة من الكلِّ إنما تتشكل من تنوع أصولنا العائلية وانتماءاتنا الاجتماعية.

إن نبذ الهوية الأحادية أو المختزلة، وإدراك وحدة/ تعدد[11] الهوية، يُعَدّان من لَوازِمِ الصحة العقلية الكفيلة بتحسين العلاقات الإنسانية.

---

10. ترجمة: (auto-éco-organisatrice)؛ والمراد أن التنظيم الذاتي يعتمد على بيئته المحيطة، إذ منها يستمد الطاقة والمعلومات. [المترجم]

11. ذكر المؤلف معها المقابل اللاتيني: (*unitas multiplex*). [المترجم]

2

غيرُ المُتوقَّع وغيرُ اليقيني

قبل مائة سنة، تيسَّر لفرد واحد فقط، من جملة ثلاثمائة مليون حيوان منوي، أن يلج بويضةً ويخصبها. تعرض الجنينُ الذي كُنْتُهُ لمحاولات إجهاضٍ. كان من الممكن أن يموت قبل أن يولد، وهو ما لم يحدث. لكنني وُلدتُ شبهَ ميّت، إذ خنقني الحبلُ السُّريّ وكتمَ أنفاسي، وتطلّب الأمرُ عزمًا من قِبَل طبيب النساء الذي صفعني طويلاً، ولم يزل يصفعني إلى أن أطلقتُ صرخةً، في آخر المطاف، فنجوتُ من الموت.

حسن الحظ وتعاسته يستتبعان بعضهما

هكذا تحولت تعاسة الحظ، التي كانت تنذرني للموت قبل ولادتي، إلى فرصةِ حياة. ولكنْ ما من فرصة حياة إلاّ وتحتمل ما لا يحصى من الحظوظ التعيسة.

من فرصة الحياة التي حظيت بها جاءتني تعاسةُ الحظ القصوى، أعني شقاوة فقداني لأمي في عمر العاشرة.

لكن تعاسة الحظ المفزعة هاته، وإن ظلت في أعماقي جرحًا لم يندمل

على التمام أبدًا، حتى في عمري هذا، هي التي حملتني في سني اليفاعة، ومن لدن العاشرة، على اللّوذ بالأدب والسينما، ثم الموسيقى. صارت الأعمال الإبداعية كأنها عَقَّاري اليومي، عَقَّار مُغَذٍّ وصحّي جعلني أكتشف حقيقة العالم الذي عشتُ فيه وفررت منه في آن معًا. وعلى هذا النحو بنيتُ خلال سني يفاعتي، وحيدًا، جملةَ ثقافتي وحقائقي.

كِدْتُ ألقى حتفي من جَرَّاءِ الشقاوة، إذ بعد سنة من موت أمي أصبت بمرض غير معروف للأطباء؛ وهو الذي أُطلق عليه، أخيرًا، اسم الحمى القلاعية (الخاص بالبقر)، لعدم وجود اسم أفضل. كانت تأتيني منه حمى شديدة. ولقد نجوت منه بفضل كمادات الثلج التي كان توضع على جسدي.

إن التغلّبَ على شقاوةٍ أو مرضٍ خطير يورث المرءَ مقاومةً يطلق عليها بوريس سيرولنيك، الذي عاشها، اسم المرُونَة، حيث تُثْمِرُ تعاسةُ الحظ هاهنا أيضًا فرصةَ حياة. وعلى هذا النحو، أورثتْ وفاةُ أمي الابنَ الوحيدَ اليتيمَ الذي كنتُه حاجةً ماسّةً إلى الإخوان والأخوات، فضلاً عن الحاجة الماسّة إلى الحب. إن هذا ما جعلني، بعد أن عشتُ عزلةً جسيمة، أبحث عن إخوان وأخوات ارتبطت بهم مدى الحياة. وهو ما جعل مني، أيضًا، ذلك العاشق الذي يجد في هياماته جُذوة الحماس اللازمة لحياته وعمله. ومن الشقاوة الأولى، التي لم تزل شقاوة، جاءت سُعود حياتي العِظام.

ثم أقبلتْ تعاسةُ الحظ من جديد حين علمتُ عبر الإذاعة، وأنا أستعد لامتحانات سنتي الجامعية الأولى في باريس خلال

يونيو/ حزيران 1940، أنه قد تم تعليق جميع الامتحانات بسبب تقدم القوات الألمانية. ثم إنني قصدتُ حاضرة تولوز لاجئًا، وكانت هذه إحدى فرص حياتي. ذلك لأنني التقيت هنالك بأوائل إخوتي وأُولَيات أخواتي؛ وهنالك عشتُ حبي الأول بشاعريته العارمة ثم غُصَّته الأولى؛ وهنالك ارتبطت بفيوليت، تلك التي ستصبح زوجتي. وهنالك اطلعت على جَمْهَرَة الكتّاب والمثقفين والمقاومين الذين سيغيّرون مجرى حياتي. وعلى الرغم من مصير الإقصاء الذي كان يتربّص بمستقبلي، فقد أمضيت هنالك أيامًا سعيدة للغاية.

وهنالك، في حاضرة تولوز، تحولتُ، بعد اجتياح الفيرماخت للاتحاد السوفياتي ومعركة موسكو، من مناهض للستالينية إلى شيوعي، ومن محبّ للسلام إلى مقاوم.

وأستطيع القول، قبل كل شيء، إن المقاومة، التي خضتُ غمارها بإيمانٍ شيوعي وتحت لواءٍ دوغولي في آن معًا، قد أتاحت لي فرصةَ العيش المكثّف عوضًا عن بؤس البقاء السخيف، فرصةَ الأخوة التي جمعتني بأناسٍ رائعين أمثال بيار لوموانى وميشال كايو، ابن شقيقة دوغول، فيليب دوشارتر؛ ولكم أدهشتني شجاعة فرانسوا ميتران.

ولئن كنتُ نادمًا تمام الندامة على عَمايتي عن طبيعة الشيوعية السوفياتية، إنه لا يمكنني القول إن فترتي الشيوعية، التي استمرت ست سنين، كانت حظًا تعيسًا، ذلك لأنها أكسبتني، في وقت لاحق، القدرة على فهم الشمولية، إذ خَبَرْتُها من الداخل. ولقد منحني **النقد**

الذاتي[12] الذي أعقب انفصالي عن الحزب فرصةً لتطهير عقلي من صنوف الدَّرَن، ونيل الاستقلال الفكري، والبحث الحَرُون عن فكر سياسي قد أضحى، منذئذٍ، موسومًا بالتعقيد.

ومع ذلك، طالتني تعاسةُ حظٍّ عظمى بعد حماس التحرير: لم تجد مقالاتي الصحفية أيّ صدى. وقد خطرت لي فكرة إقامة معرض عن جرائم هتلر، لكن الوزارة جلبت لي موظّفيْن ضَيِّقَيْ الأفُق أثارا اشمئزازي.

ثم إن الحظ أسعفني متخذًا شَكْل المصادفة. لقد أخبرني بيار لوموانِي، الذي التقيت به في الشارع من دون موعد، بأن الجيش الأول الذي دخل ألمانيا كان يبحث عن مقاومين من أجل إدارة الأراضي المغزوّة، وإعادة مرحَّلي معسكرات الاعتقال ومرحَّلي العمل إلى الوطن. اهتبلنا الفرصة، فيوليت وأنا، وبعد أن تزوّجنا على عَجَل، انطلقنا إلى لينداو، حيث مقر أركان دو لاتر العسكري. لقد أمضينا هنالك سنة سعيدة، بجنب إخوان جدد وأخت جديدة، وعشنا، في الوقت نفسه، تجربة ألمانيا المنحلة التي لا مثيل لها.

ما هي المصادفة؟

لقد جعلتُ للمصادفة هاهنا دخلاً في الأمور. أتراها كانت حاضرة منذ أن ولج حيوانٌ منويّ محظوظ بويضةَ أمي؟ أتراها كذلك حين قاوم الجنينُ الذي كُنْتُهُ وسائلَ الإجهاض؟ وحين أصر طبيب النساء على

---

12. إدغار موران، *Autocritique*، باريس: Julliard، 1959.

إعادتي إلى الحياة بعد أن وُلدت شبهَ ميّت؟ ألم تكن المصادفةُ حاضرةً حين بدت أمي نائمة في قطار الضاحية روي-باريس قبل أن يُعثر عليها ميتة في محطة سان-لازار وقد فات أوان إنقاذها؟ ألم ترافق المصادفة حياتي على الدوام؟

لا ريب في أن المصادفة هي ما لا يمكن توقّعه. إن رمية نرد واحدة لا تبطل المصادفة أبدًا، لكن تعاقب عدد كبير جدًا من رميات النّرد يجعل من الممكن استيعاب المصادفة الفردية عبر إحصائيةٍ جامعة. والحال أن سيرة الحياة مختلفة تمامًا لأنها تلتئم من أحداث فردية لا من تكرار رميات متطابقة. تكمن عدم قابلية التوقّع في انبثاق ما لا يُرتقب، حادثًا كان أو مُحدثًا. وبالجملة، أعتقد أنه ليس في مُكنتنا البتة أن نعرف ما إذا كانت المصادفةُ مصادفةً بحقّ.

لقد أمكن تصوّر المصادفة بوصفها تقاطعًا عرضيًّا لحتميات متباينة، كمثل أَصِيص أزهارٍ تؤثّر فيه الجاذبية، فيسقط من الدّور على رأس أحد المارة في طريقه إلى العمل. ولقد عُرّفت المصادفة من قِبَل عالم الرياضيات غريغوري تشايتن: إنها استحالة الضغط الخوارزمي، أي استحالة التحديد المسبق لمتوالية من الأحداث. وترمز أوميغا إلى حدود المعرفة الرياضية، مثلما ترمز إلى حدود القابلية للحساب، وحدود الصياغة الخوارزمية، وحدود قابلية التوقّع.

غير أن استحالة التوقع أو استحالة الضغط الخوارزميين لا تستبعدان خضوع المصادفة لتحديدات خفية قد تكون متصلة بحقائق في غير متناول إدراكنا. ومن هاهنا منشأ الافتراض القائل إنه في مُكنة بعض

صور الحدس ما-تحت-الواعية، وشبه التّخاطرية، توقُّعُ ما لا يُتوقّع.

أجل، لربما كان حسنَ حظّي، خلال عهد المقاومة، راجعًا إلى يقظتي، مثلما حصل حين تناهى إلى علمي خبرُ اعتقال صديقي جوزيف، وتمكنت في الوقت المناسب، قبل وصول عناصر الغيستابو، من إزالة الحقيبة التي كانت تحتوي على ذخيرة حركتنا؛ وكانت مخبأة تحت سريري، في مأواي. ومع ذلك، كان حسنَ حظّي، في مناسبتين، راجعًا إلى سبب مجهول.

وأكثرهما إدهاشًا أنه كان لي، ذات يوم، موعدٌ مع صديقي ومُساعدي جان، مناهض الفاشية الألماني الذي قاتل في الحرب الأهلية الإسبانية، وذلك في مقبرة فوجيرار، حيث يسود الهدوء، وحيث يمكن للمرء أن يعرف ما إذا كان مُراقَبًا أم لا. انتظرت هنالك جان، لكنه لم يأت. ولم يخطر على بالي، ولو للحظة، أنه قد يكون تعرض للاعتقال. ولكم يذهلني اليوم استخفافي بالأمر. لا بل قررت، وهذا تَهَوُّر مني لم أفطن له حينها، أن أذهب لرؤية جان في الفندق الذي كان ينزل فيه. وهنالك، لاحظت أن مفتاح غرفته لم يكن معلّقًا على اللّوح، وما عبَأتُ بالمضيفة الجالسة في مكتب الاستقبال، فقررت الصعود إلى الغرفة الواقعة في الدور الثاني. لكنني ما إن وطئت قدماي بَسْطَةَ الدور الأول حتى غلبني العياء، على غِرّة، فتوقفت، ورحت أفكر في أشياء غير واضحة، ثم عدت أدراجي تاركًا رسالة لجان أقترح عليه فيها موعدًا في أحد أروقة السوربون. والحال أن عناصر الغيستابو قد جاؤوا للقبض عليه في غرفته، ولبثوا معه هنالك ناصبين مصيدتهم للزوار؛ وقد قبضوا على

صديقتنا غابي بون التي ذهبت لرؤيته في الصباح (وتم ترحيلها، لكنها عادت).

لماذا غلبني العياء، وأنا ابن الثانية والعشرين، لمجرّدِ صعودِ درجٍ يسير؟ أتراها كانت مصادفة؟ أم تراها كانت إنذارًا سريًّا؟ ومَن المُنذِر يا ترى؟ لقد أخبرتني صباح أن أمي تحرسني. وعلى هذا يكون رحيلها قد نجاني من الموت وربما من أبشع الأهوال، لأنني كنت سأتعرض للتعذيب مثل جان.

وتلقيت إنذارًا آخر من اللاوعي، غير أنه كان واضحًا للغاية: ذلك أنه خلال وجودي في الحكومة العسكرية لمنطقة الاحتلال الفرنسي في بادن-بادن، قررنا، أصدقائي وأنا، حين فرغنا من العمل، المغادرة ليلًا نحو المنطقة الأمريكية من أجل الاستمتاع ببعض كؤوس الويسكي والسجائر الشُّقْر. وبعد أن تُهْنَا في كارلسروه المُدمّرة، سلكنا الطريق السريعة المؤدية إلى المنطقة الأمريكية. كان الركاب شبه نيام، وكنت أنا جالسًا بجنب السائق. وفجأة تنبَّهتُ من غفوتي صارخًا: «توقف!». وتوقف السائق قبل بضعة أمتار من هُوَّة تسبب فيها تشقُّق أحد جسور الطريق السريعة، وحيث تحطمت، في الليلة نفسها، سيارة جيب تقل جنودًا أمريكيين.

مَحاسن الشقاوة ومنافع العُسْر

على هذا النحو سيتعاقب في حياتي حُسن الحظ وتعاستُه، وقد اقترنَا

بما لا يتوقع، حتى لا أقول بالمصادفة.

من قَبِيل حسن الحظ أن روبير أنتيلم أنشأ، بمعية مارغريت دوراس، دارَ نشرٍ صغيرة اسمها المدينة العالمية، وطلب مني إصدار كتاب عن الوضع في ألمانيا المخرَّبة والمقسّمة؛ وكنت قد حدثته عنه خلال إقاماتي في باريس. لقد كانت تلك بدايتي في حقل التأليف، فأصدرت، في سنة 1946، كتاب **السنة الصفر في تاريخ ألمانيا**. ومن قَبِيل حسن الحظ كذلك أن الكتاب، الذي انفصلت فيه عن نزعة مناهضة الجرمانية السائدة آنذاك، قد استفاد من التحول الإيديولوجي الذي عرفه الاتحاد السوفياتي، والذي كان على الحزب الشيوعي الفرنسي أن يتبناه على عجل: بدلاً من الإقصاء إذن، حظيت بالثناء.

ومن قَبِيل تعاسة الحظ أنني أصبحت بطَّالاً حين فقدت مورد رزقي، أعني منصبي في إدارة تحرير دورية **الوطني المقاوم**، التي كانت تصدرها «المؤسسة القومية للمرحّلين والمحتجزين المقاومين والوطنيين»[13] الخاضعة للحزب الشيوعي. لكنني وجدت عِوَضاً عن هذه التعاسة في السعادة العظمى التي كانت تغمرني خلال ترددي اليومي، لأكثر من سنة، على قاعات المكتبة القومية من أجل جمع مادة كتابي **الإنسان والموت**.

ولَمَّا أخبرت السوسيولوجي والمقاوم جورج فريدمان باستيائي من البطالة، اقترح عليّ أن أنضم إلى المركز القومي للبحث العلمي ووعدني

13. ذكرها المؤلف مختصرة بحروف: (FNDIRP). [المترجم]

بدعمه. لقد نصحني بأن أعضّد ترشيحي بتزكية أطلبها من قِبَل أكاديميين مرموقين، وكذلك كان الأمر إذ كتب موريس ميرلو-بونتي وفلاديمير جانكليفيتش وبيار جورج شهادات لصالحي. إنني مدين بسيرتي المهنية للمركز القومي للبحث العلمي، وبحريتي لتعاسة البطالة، ولتلك المصادفة التي جمعتني بجورج فريدمان خلال وجبة طعام. صحيح أنني، بعد أن كنت مسؤولًا في المقاومة ورسمت ضابطًا في «قوات الداخل الفرنسية»[14]، أصبحت باحثًا من الدرجة الثانية في المركز القومي للبحث العلمي، لكنني كنت سعيدًا وقد صرت حرًّا.

ويمكنني إسهاب الكلام في الحظ الحسن والحظ التعيس، والشقاوة والسعادة، ذلك لأن شقاوة موت زوجتي إدفيج قد تَلاها، بعد انصرام سنة، لقاءٌ قليل الاحتمال للغاية جمعني، من باب المصادفة القصوى، بصباح التي منحتني الحياة.

إن ما لا يرتقب هو الذي جعل رئيس تحرير صحيفة **لوموند** يتصل بي في سنة 1963 ابتغاء فهم الظاهرة الآتية التي كانت هي نفسها غير مرتقبة: حفل موسيقي ضخم، في ساحة الأمة، نظمه برنامج «مرحبًا أيّها الأصدقاء» الذي كانت تبثه إذاعة أوروبا واحد، لكنه تحول إلى تظاهرة عنيفة مناهضة للشرطة. ومنذ ذلك الحين، أصبحتُ، ولفترةٍ طويلة، متعاونًا متميزًا مع صحيفة **لوموند**.

ثم إن اقتراحًا غير مرتقب من قِبَل جورج فريدمان هو الذي حملني،

---

14. ذكرها المؤلف مختصرة بحروف: (FFI). [المترجم]

كذلك، على الانضمام إلى فريق الدراسة متعددة التخصصات التي أجريت على بلوزيفيت[15]، بينما كنت أعدّ بحثًا عن المناضلين. كانت سنة 1965، التي أمضيتها في هذه القرية البروتانية التي تشكّل عالمًا مُصغَّرًا فريدًا، مثمرةً للغاية بالنسبة إليّ، إذ أتاحت لي فهم التطور متعدد الأبعاد الذي وَسَمَ الحداثة في فرنسا منذ سنة 1955. إن للكتاب العابر للمعارف الذي أصدرته في هذا الشأن مَزيّة تحقيق اكتشافات غير متوقعة، لكنني دهشت من الشجب الذي تعرض من قِبَل بعض ذوي السلطان من الأكاديميين المعتمدين لدى المفوضية العامة للبحث العلمي والتقني. ولقد أخبرني بهذا الأمر ريمون آرون، الذي التقيت به في الشارع مصادفةً، فتمكنت من إعداد الهجوم المضاد الذي برّأني رسميًا، لكنه حرمني، في الوقت نفسه، من الثناء الذي أستحقه.

حين طلب مني هنري لوفيفر أن أحل محله في جامعة نانتير في مارس/ آذار 1968، كان ما سيحدث هنالك في عداد غير المتوقع. لقد ولجت قلب المُصطَلى الذي سينتشر أُواره حريقًا في باريس وفي سائر فرنسا في مايو/ أيار 1968. وكنت الوحيد القادر على تشخيصه في أوانه وإبّانه.

وأخيرًا، تمت دعوتي، بناءً على اقتراح غير متوقع من صديقَيَّ جاك مونو، الحائز وقتها على جائزة نوبل في الطب، وجون هانت، لقضاء سنة في معهد البحوث البيولوجية الذي أسسه جوناس سولك، مكتشف لقاح شلل الأطفال. وكان من حسن حظي، في إثر ذلك، أن

15. إدغار موران، *La Métamorphose de Plozévet*، باريس: Fayard، 1967.

ظفرت بإقامة سعيدة للغاية في لاهويا، بولاية كاليفورنيا (1969-1970)، الأمر الذي أتاح لي الوقوف على أعمال وأفكار طائفة من الكتاب الذين بفضلهم أمكنني تأليف سلسلة كتب **المنهج**. وحين عدت أدراجي من كاليفورنيا، منحني جاك مونو، أيضًا، فرصة الإسهام في تنظيم ندوة «وحدة الإنسان» الدولية في دَيْر روايومون، حيث شكلت مداخلتي عن «البارادايم[16] المفقود: الطبيعة الإنسانية» نواة الكتاب الذي ألفته لاحقًا تحت العنوان نفسه[17].

كل حياة هي ملاحةٌ في بحر عدم اليقين

ومن قَبِيل ما لا يتوقع أنني، لَمَّا دُعيت إلى نيويورك لإلقاء محاضراتٍ، خلال فصلٍ دراسيٍّ، في موضوع التعقيد في الرواية، صَدَفْتُ عن هذا العمل لأرخي العنان لنفسي، كأنما قد ملكني شيطان، من أجل تحرير «المدخل العام إلى المنهج». وفي إثر ذلك، وجدتُني، في باريس، عاجزًا عن استئناف تحرير الكتاب، فاضطررت مُكرهًا إلى السفر ابتغاء الإسهام في ندوة، انعقدت قريبًا من فلورنسا، في موضوع أسطورة التنمية. لقد قيّض لي القدر هنالك امرأةً راعيةً أكرمت وفادتي، وجدّدتني، وزرعتْ في نفسي مَضاء العنفوان، ووجدتْ لي في توسكانا

16. تعريب: (paradigme)؛ وقد اعتمدنا في تعريبها الصيغة الإنجليزية (paradigm) التي تعطينا «بَارَدَايْم»، ذلك لأنها في تقديرنا أسْلَس؛ ومنها الصفة «بَارَدَايْمِي» (paradigmatique أوparadigmatic) الواردة في موضع آخر من هذا الكتاب. ولم يتفق المؤلّفون العرب على ترجمة واحدة لهذا المصطلح. [المترجم]

17. إدغار موران، *Le Paradigme perdu : la nature humaine*، باريس: Seuil، 1973.

البحرية محلَّ إقامةٍ يناسب عملي على كتابي. وهكذا غادرتُ قاصدًا ملاذي في توسكانا بمعية امرأة جديدة قيّضتْها لي تدابير العناية؛ وكنت قد التقيت بها، من باب المصادفة، قبل ثلاثة أيام من مغادرتي باريس، وأتى حبّها لإشعال الفرن العالي الذي زَوَّدَ عملي بالطاقة. وفي عزلة قلعة خَرِبة تطل على البحر، أتممتُ، مواظبًا على الكتابة من الصباح إلى قِطْعٍ من الليل، المسودةَ الأولى من سلسلة كتب **المنهج**، والتي ظهر الجزء الأول منها، لحسن الحظ، في سنة 1977، إذ كانت أزمة الماركسية، وتراجع البنيوية، عاملَيْن مشجّعيْن على حسن استقبال كتابٍ يحتوي على كل أسباب التعرض للازدراء.

إن ما يمكن أن نسميه بالمصادفة، وبغير المتوقَّع، وبحسن الحظ الكامن في طي الحظ التعيس، وبالعكس، وكذلك الحال في الشقاوة التي تنشأ عنها سعادة، وبالعكس، قلت: إن كل ذلك قد وَسَمَ حياتي من دون انقطاع. لكن أليست هذه الأمور جاريةً، ربما بتواتر أقل، على الجميع؟ إن الحياة، بالنسبة إلى كل امرئ، تعتاص على التوقع منذ ولادته، إذ لا أحد يعرف ما سيحدث لحياته الوجدانية، ولصحته وعمله واختياراته السياسية ومدة عمره وساعة موته.

ما يجب ألاّ ننساه أبدًا هو أنه إذا تقرر أننا عبارة عن آلات، فإننا، في المقام الأول، آلات غير تافهة. الآلة التافهة هي الآلة الاصطناعية، أي تلك التي نصنعها، والتي نعلم كيف تتصرف بناءً على البرامج التي تتحكم فيها. أما الكائن الإنساني، فإنه لا يتصرف دائمًا على نحو قابل للتوقع، ولا سيما في قدرته على التجديد والإبداع، ومن ثم الإتيان بما لا

يرتقب.

وعلى الرغم من اعتقادنا بأننا مسلّحون بأمور يقينية وببرامج، فإنه لا بد لنا من أن نعلم أن كل حياة هي عبارة عن ملاحةٌ في بحر من صنوف عدم اليقين، تتخللها بضع جزر أو أرخبيلات من الأمور اليقينية، ومنها نتزوّد بالمؤن.

ما يجري على الأفراد يجري بالأكثر على التاريخ، إذ لا يخضع هذا الأخير للحتميات الاقتصادية ولضروب الطمع والنهم والجشع المفرط فحسب، ولكن يخضع، كذلك، لما يشبه السخافة الشكسبيرية، «حكاية يرويها أبله، مفعمة بالصخب والسخط، ولا تعني أيّ شيء»[18]، علاوة على الحوادث والأخطاء والمصادفات والمواهب العبقرية ورميات النرد والمكائد ونوبات الجنون.

خلال حياتي، كان ثمة حدثان علميان غير مرتقبين، لكن لم يفطن لهما، في مبدأ الأمر، لا الإعلام ولا الرأي العام ولا أهل السياسة، على الرغم من أنهما سيغيّران مجرى تاريخ الإنسانية. أولهما حصل في الفيزياء النووية، ويتعلق الأمر باكتشاف فيرمي، خلال سنة 1932، في روما، لخصائص الذرة، وهو الأساس التي ستعتمد عليه، بعد عشر سنوات، البحوثُ الرامية إلى استخدام الطاقة الذرية في صنع قنبلة مدمّرة. ولمدة عشر سنوات، لم تكن لاكتشاف فيرمي سوى قيمة معرفية بحتة، وبالنسبة إلى علماء الفيزياء لا غير. كان لا مناص من أن تقوم الحرب

---

18. شكسبير، **ماكبث**: « a tale told by an idiot, full of sound and fury, signifying nothing».

لتنطلق فكرة ومشروع القنبلة الذرية، وبعد ذلك، عندما حلّ السلام، أدى النمو الاقتصادي إلى إنشاء وتطوير محطات الطاقة النووية. وفي الوقت نفسه، أدّت الحرب الباردة إلى انتشار الأسلحة النووية التي صارت منذئذٍ تمثل تهديدًا شاملاً للإنسانية.

أما الحدث العلمي الثاني، فيعود إلى روزاليند فرانكلين التي اكتشفت، خلال سنة 1953، في كامبريدج، البنية اللولبية للحمض النووي، وإلى الباحث الأمريكي الشاب واتسن الذي حلّ بمختبر كريك وفرانكلين، وأكمل اكتشاف هذه الأخيرة بحلّ رموز الشفرة الجينية التي يتشكل منها الرصيد الوراثي لدى جميع الكائنات الحية. وفي يومنا هذا، أدّت تطورات علم الوراثة إلى إمكان تعديل الرصيد الوراثي لدى جميع الأحياء، بما في ذلك الإنسان.

وجديرٌ بالذكر هاهنا أنه إذا كان في وسعنا أن نتوقع الاحتمالات المستقبلية لسيرورة تطورية (مع إمكان حدوث ما لا يحتمل على الدوام)، فإنه ليس في وسعنا أبدًا أن نتوقع ما هو إبداعي. ما كان في وسع أحد أن يتوقع مسبقًا مجيء شاكياموني (بوذا) ويسوع ومحمد ولوثر وميكالانجلو ومونتين وباخ وبيتهوفن وفان غوخ. من كان يظن، في سنة 1769، أن الكورسيكي الصغير الذي ولد في تلك السنة، في جزيرةٍ جِنْوِيّةٍ[19] ضمّتها فرنسا قبل وقت قليل، سيصبح إمبراطورًا للفرنسيين في سنة 1804؟

---

19 . نسبة إلى جنوة الإيطالية. [المترجم]

كل حياة هي غير يقينية

أود أن أؤكد هاهنا على أن أحد الدروس العظمى التي استخلصتها من حياتي هو الكف عن الإيمان بدوام الحاضر، واتصال الصيرورة، والقدرة على توقع المستقبل. إن انبثاقاتِ غيرِ المتوقع المباغتةَ، تعمل بلا توقف، وعلى نحو متقطع في الوقت نفسه، على رَجّ أو تحويل حياتنا الفردية، وحياتنا بوصفنا مواطنين، وحياة أمتنا، وحياة الإنسانية، تارة نحو الغبطة والسعادة، وتارة نحو البلايا والمحن.

لقد عشتُ الحدث غير المتوقع المتمثل في أزمة 1929 العظمى، التي دمرت العالم وأسهمت في مجيء النازية واندلاع الحرب؛ والحدث غير المتوقع المتمثل في وصول هتلر إلى السلطة؛ والحدث غير المتوقع المتمثل في قلاقل 6 فبراير/ شباط 1934 المناهضة للبرلمان، والتي استتبعت ردّ فعل غير متوقع هو ميلاد الجبهة الشعبية؛ والحدث غير المتوقع المتمثل في الحرب الأهلية الإسبانية وتمزّق الجمهورية الإسبانية التي تنامت عملية اختراقها من قِبَل السلطة السوفياتية المناهضة للأناركيين والتروتسكيين والبوميين[20]؛ والحدث غير المتوقع المتمثل في معاهدة 1939 الألمانية-السوفياتية؛ والحدث غير المتوقع المتمثل في نكبة الجيش الفرنسي وصعود نظام فيشي في سنة 1940؛ والحدث غير المتوقع المتمثل في مقاومة موسكو للهجوم النازي خلال نهاية سنة 1941، والذي تزامن مع خوض الولايات المتحدة غمار الحرب بعد

---

20 . يريد أتباع «حزب العمال الوحدوي الماركسي». [المترجم]

الهجوم المفاجئ على بيرل هاربر.

أضيفُ إلى ما سبق الأحداثَ غيرَ المتوقعة المتمثلة في كلّ من حرب الجزائر؛ وتقرير خروتشوف الذي يدين ستالين؛ وعزل خروتشوف؛ وقضية سولجنيتسين؛ وتقرير دينيس ميدوز الذي شخّص التدهور العام الذي طال المحيط الحيوي، وكشف عن الخطر المحدق بالبيئة؛ وانهيار الاتحاد السوفياتي؛ والحرب في يوغوسلافيا؛ وعقيدة تاتشر-ريغان التي أسفرتْ عن عهد التربُّح المُعَوْلَم عن طريقِ نيوليبراليةٍ تقوم على خَصْخَصَة الخدمات العامة، وإغناء الأغنياء وإفقار الفقراء؛ وقران الشيوعية والرأسمالية في الصين على عهد دنغ شياوبينغ؛ وارتقاء الصين السريع إلى صدارة القوى العالمية؛ وتدمير برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك؛ وجموح الجهادية الإسلامية القاتل في العالم؛ وعواقب حرب العراق في الشرق الأوسط؛ وأزمة الديمقراطيات العالمية؛ وأخيرًا وباء كوفيد الشامل والأزمة العالمية الجسيمة التي تمخض عنها، ثم حالة عدم اليقين الدائم التي صرنا نعيش فيها منذئذٍ سواء تعلق الأمر بالحاضر أم بالمستقبل، قريبًا كان أم بعيدًا.

ينبغي أن يُدْمَجَ عدمُ اليقين وغيرُ المرتقب في تاريخ الإنسانية. إن غير المتوقع في هذا التاريخ ليس مجرد مصادفة، ولكنه، أيضًا، على شاكلة الثورة عند ماركس، ذلك «الخُلْد العجوز الذي يعرف كيف يعمل جيدًا تحت الأرض ليظهر على غِرّة»[21]. لا يجب كبحُ المفاجأة الناشئة عن غير المرتقب. بخلاف ذلك، يجب أن تحثنا المفاجأة على فهمه والتفكير فيه

21. كارل ماركس، «ثورات 1848 والبروليتاريا»، خطاب 14 أبريل/نيسان 1856.

ابتغاء جعله في الحسبان ما دمنا عاجزين عن توقعه.

كل حياة هي غير يقينية، إذ لا تفتأ تواجه ما لا يُتوقع. قد يتحوّل الحظ التعيس إلى حظ سعيد، كما قد يتحول الحظ السعيد إلى حظ تعيس. يَا رُبَّ ضرّاء عادت بمنافع؛ ويَا رُبَّ شقاوة أثمرت مسرّة.

إن تعذر إلغاء العارِض من كل ما هو إنساني، وعدم اليقين الذي يَسِمُ مصائرنا، ولزوم ارتقاب ما لا يُرتقب، هو أحد الدروس الكبرى التي استخلصتها من تجربتي في الحياة.



3

فن العيش

«اِمْنَح الحياةَ لأيامك بدلاً من منح أيامٍ لحياتك»

ريتا ليفي–مونتالشيني

(حائزة على جائزة نوبل في الطب)

تنطوي كلمة عيش على معنيين. أولهما الوجود الحي، وهو ما يضمنه تنظيمُنا البيوفيزيائي الذي يحافظ علينا أحياء بفضل مقاومته للانحلال المُميت: التنفس، التغذية وحفظ النفس. إن العيش بهذا المعنى ليس سوى دوام الحياة، أي البقاء. وثانيهما أن يعيش المرء حياته بحظوظها السعيدة ومخاطرها المحتملة، وبما فيها من إمكانات التمتع والمعاناة، وصنوف السّراء والضّراء. إن البقاء لازم للحياة، لكن الحياة المقتصرة على البقاء ليست حياة.

كان أول اكتشافاتي، وأنا في عمر الثانية عشرة، حين شاهدت حياة الشحاذين البائسة في **أوبرا القروش الثلاثة**. في وقت لاحق، وعلى نطاق أوسع، لم أتوقف أبدًا عن ملاحظة ألوان البؤس الإنساني العظيم

التي لا يحصيها عدد، حيث تشكّل حياة البقاء، مع العوز والفاقة، في ظل القهر والهوان، حياةً سُفْلَى أسوأ حالاً من حياة البقاء.

هذه إحدى أعمق المآسي الإنسانية وأكثرها انتشارًا في كل مكان: حيوات[22] عديدة منذورة للبقاء ومقضيّ عليها به. وهذه إحدى المهام الجوهرية لسياسة إنسيّة: خلق الظروف التي تتيح لا إمكان البقاء فحسب، ولكن إمكان الحياة أيضًا.

أن يعيش المرء معناه أن يكون قادرًا على التمتع بالإمكانات التي توفرها الحياة – هذا ما تعلمته على نحو متدرّج.

أنا، أنت ونحن

كانت حاجتي الأساسية، منذ سني يفاعتي، تتمثل في تحقيق تطلعاتي الشخصية، وفي الوقت نفسه التشوف إلى العيش في مَعشَر تجمعه وشيجة الحب و/ أو الصداقة. لقد اكتشفت أن هذه الرغبة ذات طابع عام على الرغم من التنازل عنها في كثير من الأحيان، ومن تعذر إشباعها على الخصوص. قد يحدث، ولا سيما في حضارتنا، أن يتحول أولُّ تطلعٍ فردي إلى تطلع فرداني، ثم أناني، وأن تَفرض الذاتُ-الأنا نفسَها في المقام الأول. قد يحدث، أيضًا، أن تتلاشى الأنا في النحن، وذلك في غمرة الحماس الجماعي. ويمكن أن يثمر هذا الأمر ألوانًا من التفاني والإيثار الرائعيْن، ويجلب مسرّة عظمى. لكن يمكنه أن يؤدي،

22. نجمع «حياة» على «حيوات» على غرار بعض المؤلفين المعاصرين، مع أن ذلك محلّ خلاف بين اللغويين. [المترجم]

أيضًا، إلى فقدان الاستقلال الفكري، وهذا ما تتأكد صحته في الخَبَال والهذيان الجماعييْن كما هو الحال في مراسم عبادة المرشد العليم.

وفي الواقع، إن تطلع المرء إلى تحقيق أمانيه الفردية مع ارتباطه، في الوقت نفسه، بالمجتمع و/ أو بالغير، ينطوي على تناقض جواني كَمِين، ويمكن أن يخلق مشكلات صعبة، لكنه يظل تطلعًا إنسانيًا أساسيًا.

إن الأنا تحتاج إلى الأنت، أي إلى علاقة حميمة تقوم على الاعتراف المتبادل بتمام إنسانية الآخر. وتحتاج الأنا بالمثل إلى النّحن. ولقد أمكنني الشروع في تلبية هذه الاحتياجات الوجدانية العميقة في يونيو/ حزيران من سنة 1940، حين تزامن تحرري الشخصي مع حدوث النكبة القومية.

هكذا صرت أنا نفسي في تولوز، حيث اندمجت في أخوية الطلاب اللاجئين وتمكنت من تحمل مسؤولياتي الشخصية الأولى في مركز استقبال أولئك الطلاب. وكانت المقاومة بمنزلة الإقرار الكبير. لقد أصبحت كهلاً مسؤولاً في عمر الثانية والعشرين، وذلك على نحو لا يقبل الانفصال عن الأخوة التي كانت تربطني برفاقي وعن الحب الذي عشته مع زوجتي فيوليت.

لحظات حياتي العظمى

إنها اللحظات التي كنت خلالها على غاية المرام في كَنَف المَعشَر والحب. لقد عشتُ بين ظَهْرانَيْ جماعة شارع سان-بونوا من 1945 إلى 1947. وكانت البداية بالترحيب الذي صادفناه، فيوليت وأنا، في بيت

مارغريت دوراس لدى عودتنا من ألمانيا. وهنالك كان، أيضًا، مُقام زوجها روبير أنتيلم، بعد انتهاء فترة نقاهته، والذي لم تعد تربطها به أيّ علاقة جسدية، لكنها كانت تحبه حبًّا زادت في شدته محنة الترحيل وعودته المعجزة. كان عشيرها ديونيس ماسكولو، الذي أصبح أفضل صديق لروبير، مداومًا على المشاركة في تناول طعام الغداء والعشاء، وغالبًا ما كان يقضي الليل مع مارغريت. أحببت الثلاثة وأحببت ثالوثهم العاشق؛ ولقد انفصلنا بمشقة.

بعد الزوال، نحو الساعة الخامسة، كنا نذهب، روبير وأنا، إلى مقر غاليمار حيث كان ديونيس مسؤولاً عن الترجمات. كنا نصعد الدرج المهيب ثم نغادر ثلاثتنا قاصدين مقهى ليسبيرانس القريب حيث لا نكف عن المناقشة. كنا نتحدث عن كل شيء، وكنا نُطالع بعضنا بمؤلفينا وشعرائنا وموسيقيينا الأثيرين. وحين يأتي المساء، كنا نذهب سَويّةً إلى مطعم بوتي سان-بونوا، ومقهى فلور، ونادي تابو حيث كان بوريس فيان يعزف على النَّاقُورِ، ومسرح فيو كولومبيي حيث كنا نستمع إلى الإخوان جاك وجولييت غريكو أو الفنان التروبادوري جاك دواي الذي كان يغني «البلاطات الصغيرة» و«حبيبتي أنا».

كانت مارغريت، المضيفة والطاهية في الوقت نفسه، تُعِدّ وجبات غداء فرنسية-فيتنامية ومآدِب عشاء تجمع آل كينو وآل ميرلو-بونتي وآل روني كليمان، علاوة على جورج باطاي. كنا نغني ونرقص. وبعد الزوال، يأتي عدد من الأصدقاء والمعارف بكل حرية لتجاذب أطراف الحديث؛ أما الذين كانوا يأتون بانتظام، فقد شكّلوا ما سيطلق عليه

لاحقًا اسم «جماعة شارع سان-بونوا».

لكن زمن النُّعْمَى ولّى لمَّا حَبِلَتِ مارغريت وفيوليت في آن واحد، الأمر الذي أجبرنا على مغادرة شارع سان-بونوا لاستئجار شقة في بلدية فانف، خلف ميدان المعارض. ولقد استمر رابط الحب، لكن المَعشر توقف، ونشأت لاحقًا مسافات ثم نزاعات شتّتت الثالوث وأثرت بصور مختلفة في علاقتي بكل طرف. ومع ذلك، أمكنني أن ألتقي بديونيس مجدّدًا خلال سنواته الأخيرة، وقد بهرني منذ الوهلة الأولى، وظل عزيزًا عَلَيّ حتى آخر المطاف. وبالمثل، أعتز بذكرى مارغريت وروبير. ثلاثتهم ما برحوا موجودين داخلي ويترددون على أفكاري وأحلامي.

ونَعِمتُ بمعشرٍ سعيد آخرٍ في لاهويا، بولاية كاليفورنيا، بين سنتي 1969 و1970، وذلك في الفيلا الكبيرة المطلة على المحيط التي خصّصها لي معهد سولك للبحوث البيولوجية، حيث قمنا، جوان وأنا، باستضافة شبه أختنا ألانيس، المنحدرة من قبيلة الأبيناكي في كيبيك، علاوة على بِنْتَيَّ، وأبي وخالتي كورين، في جو من التفاهم المتبادل الذي ألفيناه في آخر المطاف.

لقد ارتبطنا ارتباطًا وثيقًا بجون وشانتال هانت، وجاك مونو، وجوناس سولك، وفرانسواز جيلو، وبدائرة ودية كاملة حيث كانت اللفائف تنتقل من يد إلى يد، ومن شفة إلى شفة.

كنا نلتقي مرارًا من أجل الحفلات ووجبات العشاء والعروض

الفنية، بما في ذلك حفل جانيس جوبلين الذي لا يُنسى. وشاركنا في تجمعات ضخمة في الهواء الطلق حوالي فرق الروك. وعلى صوت يصم الآذان، عشنا الحماس الجماعي والغشيان الناتج عن الجرعة الزائدة.

لقد سعدتُ بالغوص في عالم الهيبيين الذي كان يضم جماعات اليافعين ممن يبدو لهم أن كلمتي **حب** و**سلام** قادرتان على طرد الشر من العالم والإِيذَان بمجيء عصر الدلو الجديد.

في لاركسبر، قريبًا من سان فرانسيسكو، التقيت بهيلين، أختي التّولوزية. كان بيتها مفتوحًا ومرحِّبًا بالجميع. هنالك نُبذ التسلسل من الزمن، وعُطّلت الساعات، وكانت الأنشطة تُنظّم وفاقًا لمسار الشمس.

إنها حضارةٌ تريد أن تولد وستموت، لكنها زرعت في جامعة بيركلي بذور تطلع وعصيان أشعلت فتيل التمرد الطلابي في العالم خلال سنة 1968. لقد عشتُ هذه الألفيّة الساذجة بحماسة كان قدرها يتناسب طردًا مع علمي بأنه لن يتحقق من أمانيها شيء[23].

في الصباح، كنت أقصد مكتبي في معهد سولك، حيث كنت أقرأ وثائق وتقارير البيولوجيين، وحيث اكتشفت طائفة من المؤلفين الذين سيساهمون في تكويني الجديد في شأن التعقيدات، أمثال آشبي ووينر وبيتسن، ولا سيما فون فورستر. وكنت أغادر المكتب لألقي بنفسي تحت أمواج المحيط العالية، وبعدها أذهب لتناول طعام الغداء الذي أعدته يوهان، ثم ننطلق في جولة رائعة خلال الفَلَاة القريبة.

---

23. انظر كتابي: *Journal de Californie*، باريس: Seuil، 1970.

وأخيرًا، عدنا أدراجنا إلى فرنسا عبر اليابان وآسيا، محتفظين بصداقات عزيزة طالما قاومت التفرّق، وبعضها بقي مدى الحياة.

أود أيضًا أن أذكر المعشر الدافئ والمتناغم الذي وجدته لدى خافيير بوينو في كالديني بتوسكانا، قريبًا من فيازولي، بين الكروم وأشجار الزيتون، مع ابنه رفايلي وشريكته إيفا. كان الكلب والقط والإوز والغربان هنالك يأكلون من مِذْوَد واحد كأنهم إخوان.

كنا هنالك سعداء للغاية، إدفيج وأنا، حتى إننا قررنا الاستقرار والعيش في ذلك المكان منذ صيف 1979. لكن خافيير توفي خلال ذلك الصيف. ولقد عشنا الموسم في معشرٍ تَشُدُّ أزره ذكرى صديقنا الدائمة.

لا أنسى أيضًا معشرَيْ الحمامات وأرجنتاريو الصيفيَيْن مع ميشال وجان دانيال، ودون وجان سيريزا، وإيفلين وأندري بورغيار ...

إن السعادات العظمى لا تعمّر إلا قليلاً.

إن ذكراها لا تفعمني بالحنين فحسب، ولكن تفعمني بحبور لطيف وحزين كذلك.

الحالة الشعرية والسعادة

كل هذه الفترات السعيدة تنطوي على بعد شعري.

إذا كان تطلعُ المرء إلى تحقيق أمانيه الفردية مع اندماجه في جماعة هو

أولَّ تطلع إنساني عظيم، فإن أعظمَ تطلع إنساني بعده هو أن يعيش المرء حياة شعرية.

لقد اكتشفتُ الكلمة التي تحمل في نظري إحدى أعظم حقائق حياتي: الشعر. لا أعني شعر القصائد فحسب، ولكن أعني أيضًا، كما ذكرت ذلك السرياليةُ وأعلنتْهُ، شعرَ الحياة. إن إدراكي للمزِيَّة الشعرية يعود، فيما أعتقد، إلى مهرجان الشعر في ستروغا، بيوغوسلافيا سابقًا؛ ولقد ألقيتُ هنالك محاضرة هذبتُها في كتابي **الحب والشعر والحكمة**[24].

لِمَ الشعر وليس السعادة؟ إن اللفظين يحيلان إلى بعضهما. تمنح الحالةُ الشعرية الشعورَ بالسعادة، وتنطوي السعادةُ في ذاتها على المزِيَّةَ الشعرية. وفي اعتقادي، إن الحالة الشعرية تكمن في أساس كل سعادة، فهي في قلب كل المسرّات، عابرة كانت أو دائمة.

وما أدعوه بالحالة الشعرية إنما هو تلك الحالة الانفعالية التي تنتابنا أمام ما يبدو لنا جميلًا أو/ ومحبوبًا، لا في حقل الفن فحسب، ولكن في العالم وفي تجارب حيواتنا، وفي لقاءاتنا أيضًا. إن الانفعال الشعري يفتحنا، يمدِّدنا، ويسحرنا. إنها نشوة الغيبة التي يمكن أن تكون لطيفة للغاية، خلال تبادل بسمات أو تأمل وجه أو منظر، وحادة جدًا خلال الضحك، وسابغة للغاية خلال أوقات المسرّة، وبالغة الشدة في

---

24 . إدغار موران، *Amour, poésie, sagesse*، باريس: Seuil، 1997.

الاحتفال والوفاق الجماعي والرقص والموسيقى، وفي منتهى التوهج والسُّكْر والحماس في حالة العشق المتبادل. يستطيع الانفعال الشعري، في سناء الحماس، أن يبلغ نشوة الوَجد، أعني ذلك الإحساس بالفناء عن الذات في حياض الغِبطة أو الوفاق السامي.

هل تبدأ الحالة الشعرية ببسمات الرُّضع وضحكات الأطفال وألعابهم؟ مهما يكن من أمر، فهي موجودة بدرجات متفاوتة للغاية بحسب الطبائع أو الأمزجة. إن البلايا، والجهود المبذولة ابتغاء البقاء، والعمل المضني العاري من الاهتمام، والهوس بالمكاسب، وفُتُور الحساب والعقلانية المجردة، كل ذلك يساهم في هيمنة النثر (بكل ما ينطوي عليه هذا اللفظ من معاني الابتذال واللامبالاة والسّأَم) في الحيوات اليومية. ومع ذلك، تحدث بعض الانفلاتات الشعرية في معظم الحيوات.

لستُ أخلط بين النثر والشقاوة: في النثر يغيب الفرح؛ وفي الشقاوة توجد المعاناة. إن الذين يكابدون الشقاوة، من المساجين والمُقْصَيْن والبائسين، محكوم عليهم أيضًا بالنثر، حتى ولو كانوا يعيشون أحيانًا لحظات شعرية عابرة.

على مر السنين، لاحظتُ كيف اجتاحنا بِالتَّدَرُّج نثرٌ مميّزٌ لحضارتنا. رأيت وِداد اليفاعة يختفي خلال سنوات ما بعد الحرب. أما العلاقات الودية بين الجيران، والمحادثات على مَشْرَب الخمارة، وفي المترو، وحشود المتفرجين الفضوليين، فقد تقلصت إلى أقصى الحدود. إن اختفاء البوّابين ومُخَرِّمي التذاكر ورؤساء محطات المترو ومرافقي

الركاب في الحافلات، وندرة تبادل التحية فيما بين الجيران، وتنامي الغُفْلية، والعجلة، وعصبية سائقي السيارات، كل هذا جعل مدينتي وحياتي تافهتين بلا طعم، حتى إنني قررت، بمعية صباح، أن أغادر باريس نحو مدينة جنوبية مركزها التاريخي مخصص للراجلين، وحيث وجدت وِدادًا مفقودًا.

إن تدهور نوعية الحياة ناتج عن الأسبقية المعطاة لما هو كَمّي في تنظيم وقيادة مجتمعنا، ومن ثم حيواتنا، حيث يتعامل الحساب مع كل ما هو إنساني بوصفه شيئًا قابلاً للقياس، ويعمى عن كل ما هو فردي وذاتي وعاطفي، فلا يرى سوى الناتج المحلي الإجمالي والإحصاءات واستطلاعات الرأي والنمو الاقتصادي.

أعتقد، على شاكلة إيفان إيليتش، أن الوِداد عنصر أساسي لنوعية الحياة، وأنه يضفي عليها طابعا شعريًا، وأنه يسمح بالاستجابة اليومية لحاجتنا جميعًا إلى الاعتراف والتي تجد أول ما يرضيها في تحية يلقيها إلينا غرباء نصادفهم.

حين كنت طفلاً، عشتُ لحظات من الشعر في حضن أمي وعناقها، وفي الألعاب، ثم في قراءاتي الأولى، مثل مغامرات الأَزَبّ الذي يبلغ ثلاث عشرة سنة أو سلسلة «بيي نيكلي» التي كانت تنشرها مجلة **ليباتان**، وروايات كونتيسة دو سيغور، أو في الولع الشبقي بأعجاز الخيول أو النساء، وأيضا برجل إشهار القطن الحراري الذي يسير عاريًا بسبيخٍ على صدره، ومن فمه ينفث النار.

معنى هذا أن الشعر يبدأ مع الحياة؛ إنه يُطِلّ منذ لحظة ظهور ما نسميه «متعة العيش»، تلك التي تجعل الرضيع يبتسم أو يضحك، والكلاب تمرح، والقطط تتمدّد، وتجعل صغار الثدييات تتعاض أو تحاكي معارك، وهو ما نفعله نحن أنفسنا بفرح خلال الطفولة واليفاعة وحتى الكهولة: ما أمتع القتال من أجل المتعة!

تجاربي الشعرية

منها التجارب التي تستثيرها ألوان الدهشة من رؤية المناظر الطبيعية، والتي يشعر بها كثيرون، لكن ليس من دون مناص. أَتَذَكَّرُ هذه الشهادةَ من أحد أقارب لينين المنفي في سويسرا، والذي يروي أنه، لَّما صعد الزعيم الثوري إلى قمة جبل، رأى منظرًا رائعًا، فصاح مُتَبَرّمًا: «أَوَّهْ لهؤلاء الديمقراطيين الاجتماعيين!».

وثمة شِعرُ الشِّعرِ الذي غالبًا ما يحضرني لأتلوه، ثم شعرُ الروايات والأفلام التي تجتاح الروح وتغرقنا في الذهول. وكان هذا حالي إزاء تولستوي ودوستويفسكي.

وأنا أزور متحف اللوفر، ذات يوم، شعرتُ بما يشبه النشوة قُدَّام منحوتة **الراقصة الصغيرة** لإدغار دوغا، كما أشرت إلى ذلك في مذكراتي[25]. ولقد عشتُ نشواتٍ موسيقيةً شِدادًا، ونشوةً عظيمة حين استمعت، لأول مرة، في قاعة غافو، إلى أولى حركات **السمفونية التاسعة** لبيتهوفن، وكان عمري حينها ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة.

---

25. إدغار موران، *Les souvenirs viennent à ma rencontre*، باريس: Fayard، 2019.

ولا تزال النشوة تخطفني كلما استمعت إلى هذه الحركة.

يتحَرّق المرء شَوْقاً إلى أن يعيش لحظاتِ حياةٍ شعريةٍ، والحال أنها تأتي من تلقاء نفسها، بلا دعوة أو توقع. لا يَجزينا أن نرغب في شعر المسرّات العظيمة كي نعثر عليه. وإنما يتطلب الأمر قرانَ أحداثٍ وأحوال ميامينَ، على شاكلة قرانِ الكواكبِ السَّعد في التنجيم. وعندئذ يندمج الانسجامُ والأمان والشدّة على نحو لا يُوصَفُ.

أجل، إنّ هذه المسرّات ممكنةٌ، ولئن ندر وجودها بالأقل والأكثر، إنها جوهر حيواتنا.

ومع ذلك، يطولُها الزوال. تنحل الوشائج ثم تنقطع. من شارع سان-بونوا إلى كالديني، أينما وُجد معشرٌ رائع، رأيتُ هذه الروابط غيرَ القابلة للفصل تنفصل، ورأيتُ الحب الذي كان يبدو غيرَ قابل للتبدل يترك مكانه للامبالاة وأحيانًا العداء. رأيتُ وعشتُ التفرّق العنيد الذي أحاق بالمُتحابّين وهم يُشيحون بوجوههم عن بعضهم – تفرّقٌ يُرهص بالتفرّق النهائي الذي يطول كل حياة.

ألا إنّ أسمى شعرٍ هو شعرُ الحب. إنه يُطِلّ من الوجوه والنظرات والبسمات. ويمكنه أن ينبثق من نظراتٍ تتقاطع، على غِرّة، فيتلظّى من جرائها الكيانُ برمته. إنها تنبع من المحبوب، وحين يكف الآخر عن إلهام الشعر، ينتهي الحب. يبلغ الشّعر ذروته في نشوةٍ رَعِشةٍ تختمُ الجماع. وحين يوجد حبٌّ حقيقي، لا يَعقُب الجماعَ أسى، بل إنما تعقبه رقّة. كل امرأة أحببتها، سواء تزوجتها أم لا، قد وهبتني شِعْرها، ولم

يزل شعرُ الحب يغذي حياتي.

لكن ثمة أيضًا النشوات السود، نشوات هاوية الإيروس المجنونة التي انغمست فيها خلال تجربتين، حيث تصبح الهَذَيانات مباهجَ، ويصير الفُحْش مقدسًا.

المسرّات الصغيرة

لا بد لي، أيضًا، من أن أستحضر تلك اللحظات العابرة من هَبّات الشعر السعيد التي تأتينا من لا شيء تقريبًا، لأننا نمشي، فيخبرنا الجسد عن مرحه وهو يعمل مثل آلة جيدة. ويشتد الشعر حين يكون السير تحت شمس الشتاء أو أمطار الربيع الجميلة. عشتُ لحظةً من الحبور الشعري، ذات يوم، حين رأيت في الشارع، عند موقف الأُوتُوبِيس، وجهًا تضيئه ابتسامة رائعة لفتاة منهمكة في قراءة رسالة. غالبًا ما كنت أعثر على الشعر في الشارع أو في سوق أو في مطعم، وبخاصّةٍ حين أتأمل في المترو وجوه الإناث، شابّاتٍ وكَهَلاتٍ ومسنّاتٍ، التي تنطوي على سرّ لا يُسبر غوره[26].

إن المسرّات الشعرية الصغيرة لا تحصى: حين أتذوق نبيذ البوجولي الفتي من دار شيرميت، وحين أصيح في الملعب لَمَّا يسجل فريقي هدفًا، وحين أعطي قطعة خبز لطائر نَوْرَس يأتي ليلتقطها من شرفتي، وحين

26 . يمكن أن يُفهم إحساسي بقراءة كتابي *Poésies du métropolitain*، وهو عبارة عن مجموعة أشعار كتبتها لما كان عمري ثماني وعشرين سنة؛ وقد صدر عن دار النشر Descartes & Cie سنة 2018.

أقرأ أو أسمع نكاتًا، وحين أقوم بإعداد طبقي المكون من شرائح الباذنجان...

نشوات التاريخ

آتِي الآن إلى اللحظات التاريخية التي منحتني ذلك الإحساس الشعري للغاية الذي هو الحماس. في سني يفاعتي، عشتُ أطوار الإضراب العام الذي شهدته سنة 1936 بوصفه حركة كبيرة مفعمة بالأخوة والأمل. كانت التضامن الأخوي فعليّا، لكن الأمل كان خادعًا.

أود أن أستحضر، على الخصوص، ما سمّيته بنشوات التاريخ، تلك اللحظات العجيبة، النادرة والعابرة، الموسومة بالتحرر والحرية والأخوة، على غرار اللحظة التي شكّلها، بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى آخرين عديدين، تحريرُ باريس، بعد أسبوع مكثف من الانتفاضة. في ليلة 24 أغسطس/آب سنة 1944، طفقتْ جميعُ أجراس الكنائس تدق بينما اشتعلت النيران في المباني التي كانت تحتلها الأجهزة الألمانية. كنّا، رفاقي في «الحركة القومية لأسرى الحرب والمرحلين»[27] وأنا، على السطح المطل على بيت السجين، في ساحة كليشي، الذي كنا نحتله منذ بدء الانتفاضة. وقد نمت إلينا شائعةٌ مفادها أن دبابات لوكلير وصلت إلى قصر البلدية. ولمَّا انتقلنا إلى هنالك، عند طلوع الفجر، وجدنا دبابات السّرية التاسعة من فرقة لوكلير بمقاتليها المَنْهوكين والمبتهجين

27. ذكرها المؤلف مختصرة بحروف: (MNPGD). [المترجم]

الذين قدمنا لهم الشكر ودموع الفرح تسيل من الأعين.

وفي 26 أغسطس/ آب، كان الاستعراض الكبير من ساحة النجمة إلى قصر البلدية، بقيادة دوغول وأعضاء المجلس القومي للمقاومة، تليهم عناصر قوات الداخل الفرنسية مشاةً وركابًا، فضلاً عن حشد هائل. وكنت هنالك، أحمل الراية ذات الألوان الثلاثة واقفًا على سيارة ذات سقف مفتوح يقودها جورج بوشان، ومعنا فيوليت ومارغريت وديونيس. ولقد انقطعت البهجةُ الجماعية، على غِرّة، من جَرَّاءِ إطلاق الرصاص على الموكب الذي تبدد جزئيًا عند المُلتَقَى الذي صار لاحقًا جَادَّة روزفلت، بينما واصلت سيارتنا تقدمها، ورايتها ترفرف في الهواء، تحت وابل الرصاص الذي كان يطلق من الأسطح، وعلى إيقاع تصفيقات الباريسيين المحتشدين تحت مظلات المتاجر الكبرى في شارع أوسمان.

وكان لي بالمثل موعدٌ مع التاريخ في لشبونة، خلال أبريل/ نيسان 1974، بعد أيام قليلة من سقوط الدكتاتورية، في خضم الشَّمَق الأول الذي أعقب ثورة القرنفل، بمعية أصدقاء أعزاء. ثم إن الصراعات الداخلية كادت تحوّل الثورة إلى ديمقراطية شعبية.

وبالوكالة فقط، عن طريق التلفزيون، عشتُ نشوةَ الحرية التي رافقت اجتياز مئات الآلاف من الألمان الشرقيين جدارَ برلين، في 9 نوفمبر/ تشرين الثاني 1989، تلته على الفور ألوانُ التضامن الأخوي بينهم وبين نظرائهم الغربيين. لقد تأثرتُ أيما تأثر باللحظة الرائعة التي عزف خلالها روستروبوفيتش موسيقى باخ على الكَمَان الأَجْهَر عند

سفح الجدار الهادئ. وفي موسكو، التي زرتها عدة مرات بين سنتي 1989 و1991، خلال عهد البيريسترويكا والغلاسنوست، شعرت بنسمة الحرية لبعض الوقت، قبل أن تحل النكسة.

أحب كذلك الانفعالاتِ الجماعيةَ التي ترافق مباريات كرة القدم أو الكرة المستطيلة. أحب اللحظةَ، الشبيهةَ بالجماع، التي تنتهك فيها الكرةُ شباكَ الخصوم، فتستثير نشوةً محمومة من جانب الهدّاف وزملائه في الفريق علاوة على فرح الجمهور العارم الذي يستولي عليّ أنا أيضًا. منذ عشرات السنين، لا أشاهد المباريات إلا عن طريق التلفزيون، لكنني لا أفارقه طرفة عين خلال بطولة الأمم الست في الكرة المستطيلة، وخلال كأس العالم على الخصوص. وفي المناسبتين اللتين انتصرت فيهما فرنسا، عشتُ النشوةَ الجماعية حيث أصبحنا جميعًا إخوة لبضع ساعات.

بيد أن الحالة الشعرية تنطوي على خطر، إذ إن طابعها السِّرَّانِي[28] يمكن أن يتحول لا إلى طابع أسطوري فحسب، ولكن إلى طابع عدواني أيضًا.

---

28. ترجمة: (mystique)؛ وغالبًا ما تُترجم عندنا بكلمة «صوفي» التي نعلم أنها ذات دلالة خاصّة في اللغة والثقافة العربيتين لا تتعدّاها إلى غيرها إلا بسلطان! والحال أن كلمة (mystique)، المستعملة في اللغة الفرنسية وغيرها، إنما أُخِذَتْ من النعت اليوناني «موستيكوس» (μυστικός) القريب اشتقاقيًا من الفعل «مويو» (μυέω) والاسم «موستريون» (μυστήριον) الدالّين، على التوالي، على معنيَيْ «المُسارّة» و«السّر». وتحتمل كلمة (mystique)، بحسب المقام، معاني: «الباطني»، «الروحاني»، «الإيماني»، «المتعصب»، إلخ. لذلك، نفضل ترجمتها هكذا: «سِرَّانِيّ»، بالنسبة إلى (mystique)، و«سِرَّانِيّة»، بالنسبة إلى (mysticisme). ونعتقد أنه إذا كان كل صوفي سرّانيًا، بدرجة ما، فإنه ليس كل سرّاني صوفيًا. [المترجم]

وعلى هذا، يمكن أن يكون شِعرُ الوفاق أسْوَدَ وعدوانيًا، كما هو الحال في التجمعات النازية الضخمة في نورمبرغ حيث لا ينفصل حب الفوهرر والأمة عن التشامخ الغبي لعقيدة التفوق الآري الزائفة. ثمة شِعْرٌ أسْوَدُ في فرحِ السّادي الذي يُعَذِّبُ ويُذِلُّ الآخرين.

إن الحالة الشعرية تَفسُد حين تزاول الإقصاء، وحين تَتَقَوْقع مستمتعةً بأنانيتها، ولا سيما حين يصحبها الحقد والازدراء. وهذا يعني أن الحالة الشعرية الحقيقية، تلك التي تزرع البهجة، لا يمكن أن تكون منغلقة على نفسها. إنها تغذي شِعْرها بالانفتاح، أي الانفتاح على الآخرين والانفتاح على العالم والانفتاح على الحياة والانفتاح على الإنسانية.

الحاجة إلى الاعتراف

لا أتذكر متى أدركتُ بوضوح أنه، علاوة إلى تلبية حاجاتهم المادية (من مأكل وملبس وموارد مالية وحماية)، يشعر بنو الإنسان بحاجة أساسية، ذاتِ طبيعةٍ عامة، هي نفسها الحاجة التي شعرت بها أنا شخصيًا، ولاحظتها في علاقاتي بالغير: إنها الحاجة أو الرغبة في الاعتراف. ولقد كان هيغل أول من أَدْرَك هذه الرغبة انطلاقًا من تصوره لجدل السيد والعبد، وبصورة أعم الفكرة التي تقول إن «وعي الذات لا يحقق الرِّضا إلا في وعي ذاتي آخر».

إن الازدراء واللامبالاة، وصنوف الغطرسة الطبقية والعرقية والهرمية، هي آفات الحضارة التي تفرض الإذلال، فتحول دون

الاعتراف لمن أُذِلَّ بتمام صفته الإنسانية. إن حاجة المُسْتَعْبَدين والمُسْتَغَلّين إلى الاعتراف تَعظُم بقدر تنامي معاملتهم بوصفهم كائنات دون الإنسان مرتبةً أو مجرد أشياء. وانطلاقًا من هيغل، يقوم أكسل هونيث، في كتابه **الصراع من أجل الاعتراف**[29]، بتفسير الصراعات الإنسانية من منظور «طلب الاعتراف».

في ضوء ذلك، يبدو أن كثيرًا من الاحتجاجات والمَغَاضِب والتمرّدات الشعبية، مثل حركة السترات الصُّفر، تنطوي لدى المشاركين فيها، لا بالتأكيد فحسب، ولكن بلا منازع أيضًا، على الحاجة إلى الاعتراف لهم بتمام صفتهم الإنسانية – وهو ما ندعوه بالكرامة.

وتتجلى هذه الحاجة إلى الاعتراف، تحديدًا، في الصداقة أو الحب. أن يكون المرء محبوبًا معناه أنه يُعَدُّ من قِبَل الغير كائنًا جديرًا بالحب؛ وأن ينال الإعجاب معناه أنه يُعترف به بوصفه كائنًا حلوًا وجميلاً.

والظّفر بالتقدير إنما يلبي الحاجة إلى تقدير الذات، والتي يُعَدُّ الاعتراف بها من قِبَل الغير بمنزلة الركيزة.

إن التحية التقليدية التي نلقيها إلى الغريب أو إلى الجار هي علامةٌ أولية على الاعتراف، ولسان حالها: «أنت موجود، أنا أعترف بك بوصفك إنسانًا»، بينما يدل اختفاءُ هذه التحية في خضم الغُفْلية على انحطاط قدرتنا على الاعتراف بالغير.

حين يتم التعامل مع الرجال والنساء بوصفهم مجرد كائنات

29. أكسل هونيث، *La Lutte pour la reconnaissance*، Cerf، 2000.

إحصائية ينتفي الاعتراف بهم بوصفهم أناسًا. حتى إننا نستطيع القول إن الأسبقية التي يحظى بها ما هو كَمّي عند التقنوقراطيين والاقتصادوقراطيين[30]، الذين يُذيبون إنسانية الإنسان في الأرقام، لا يؤدي إلا إلى مُفاقمة الحاجة الأنثربولوجية إلى الاعتراف.

يجمع فن العيش بين التشوف إلى «الحياة الحقيقية» وحاجة المرء إلى تحقيق تطلعاته الشخصية، في دائرة العلاقة الدائمة بين الأنا والنحن، ونوعية الحياة الشعرية علاوة على إشباع الرغبة في الاعتراف. لا توجد وصفة لفن العيش، مثلما لا توجد وصفة للسعادة. لكن توجد في بعض الأحيان أمثلة. والتطلع إلى فن العيش يكون واعيًا، بالأقل والأكثر، في كل واحد منّا.

ماذا نفعل بحيواتنا يَا تُرَى إن لم نحافظ على فن العيش بلا هوادة؟

---

30 . في الأصل: (éconoctrates)؛ ولعل المراد: (économocrtaes) التي ترجمناها بـ«اقتصادوقراطيون». [المترجم]

4

التعقيد الإنساني

لم أتلقّ من أبي لا ثقافة ولا قناعة، دينية كانت أو سياسية أو إتيقية.

لذلك كنت أبحث بمفردي، خلال الأزمات والعواصف والضَّوْضاء والفوضى والهذيانات التي وسمت سنوات 1930-1940، المُوَافِقَةَ لفترة يفاعتي، عن أجوبةٍ تشبع فضولي إزاء الحياة والعالم والمجتمع والأحداث. قادتني تصاريف الأحوال إلى التساؤل عن كل شيء، والتساؤل عن السياسة والمجتمع بصورة متنامية. كانت الأحداث المذهلة، المُقْلِقة والمرعبة، التي شهدتها تلك الفترة، تثير تساؤلاتي. خلال عشر سنوات، عشتُ سلسلةً من الاضطرابات التاريخية. كيف نفسر مسار التاريخ المُتَعَرِّج الذي نعيشه؟ كيف نتصرف؟ كيف نتعامل مع ما يجري؟

الوضع الإنساني

كانت أسئلة كانط الأساسية الثلاثة تراودني تلقائيًا، قبل أن أعرف عنها شيئًا: ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا يجب علي أن أفعل؟ وماذا يحق

لي أن آمل؟[31]

وكانت الأحداث ذات الخطورة المتنامية التي سبقت الحرب تستحثها وتقوّيها في نفسي على الدوام.

كنت أميل إلى التساؤل عن التاريخ والوضع الإنساني، لا من جَرَّاءِ ضغط الأحداث التي بدت عارية من كل عقلانية فحسب، ولكن أيضًا تحت تأثير صديقي جورج دلبوا، الذي التقيت به خلال اجتماعات الطلاب الجبهويين، والذي كان شديد التأثر بأستاذه في الفلسفة الماركسية روني موبلان. لقد أقنعني دلبوا أن فكرًا على شاكلة فكر ماركس، الذي تأسس على الفلسفة والعلم والسوسيولوجيا والاقتصاد والتاريخ والسياسة في آن واحد، وجمع في كنفه بين المعارف المشتتة والمتفرقة بين التخصّصات، هو وحده القادر على إسعافنا بمعرفة ملائمة بالمشكلات الإنسانية.

دقت طبولُ الحرب في السنة نفسها الذي ولجتُ فيها الجامعة. لقد سَحقت كلَّ آمالي السياسية، لكنها حثتني على الدراسة، لا من أجل الحصول على وظيفة، ولكن من أجل معرفة الحقائق الإنسانية. ولقد أدركتُ أننا، قبل كل اعتقاد وقبل كل أمل، نحتاج، كما قال كانط، إلى معرفة ماهية الإنسان. لذلك اتخذت قراري، منذ ذلك الوقت، في شأن اتجاه وهدف حياتي كلها. ولَمَّا كانت المعارف المتصلة بالحقائق الإنسانية منفصلة ومقسمة إلى تخصّصات، التحقتُ بكلية الآداب ابتغاء الحصول

31. انظر: إيمانويل كانط، *Logique*، 1800.

على الإجازة في الفلسفة (التي كانت تتضمن في برنامجها السوسيولوجيا وعلم النفس) والإجازة في التاريخ والجغرافيا، كما التحقت بكل من كلية الحقوق، لدراسة علوم الاقتصاد، ومدرسة العلوم السياسية. وقد اضْطَرَّني منفاي في تولوز خلال يونيو/ حزيران 1940 إلى التخلي عن مدرسة العلوم السياسية. ومع ذلك، بقيت منخرطًا بصورة لاواعية في البحث عن أنثربولوجيا معقدة. ولقد أرشدني فكر ماركس، ولا سيما **المخطوطات الاقتصادية-الفلسفية**، حيث يرى هاهنا أن علوم الطبيعة وعلوم الإنسان يجب أن تلتحم فيما بينها.

كنت مقتنعًا وقتئذٍ أن البُنَى التحتية للمجتمعات الإنسانية ماديةٌ واقتصاديةٌ، وأن الأفكار والأساطير أو المعتقدات لا تعدو أن تكون بُنًى فوقية تابعة.

سلطان الأسطورة

بعد انصرامِ ثماني سنوات، خلالَ أزمة انفصالي الذاتي عن الستالينية، ألفتُ كتاب **الإنسان والموت**. لقد اكتشفتُ أن الأسطورة والدين والإيديولوجيات تشكّل حقيقة إنسانية واجتماعية لا تقل أهمية عن السيرورات الاقتصادية والصراعات الطبقية، الأمر الذي جعلني أتخلى عن التصور الماركسي الذي يَعقلُ التاريخَ الإنساني انطلاقًا من البنية التحتية الاقتصادية. وأدركتُ، من خلال الطابع المتنوع للغاية – ولكن العام – الذي يَسِمُ عقائد الحياة بعد الموت (البقاء، البعث، القيامة، الفردوس...)، أن المُتَخيَّل مكونٌ متأصل في الحقيقة الإنسانية.

خلال تساؤلاتي عن الوضع الإنساني المنذور للموت، عَنَّت لي مفارقتان. أولاهما أن الوعي الإنساني، منذ عهد نياندرتال، يدرك تمامًا حقيقة الموت التي تتمثل في توقف كل النشاط القلبي والذهني، والصّمل الجُثّي، وتحلّل الجسد الذي لا يمكن تداركه. ومع ذلك، تم التغلب على هذا الاعتراف التجريبي بالموت عن طريق الإيمان – وحصل هذا منذ عهد نياندرتال أيضًا – إما بحياة بعد الموت في صورة طيف أو شبح، وإما بولادة جديدة في صورة إنسانية أو حيوانية. وسيجري تطويع الموت لاحقًا، في الإمبراطورية الرومانية ثم في الجزيرة العربية، عن طريق القيامة التي وعدت بها ديانتا الخلاص العظيمتان اللتان هما المسيحية والإسلام.

وثانية المفارقتين أنه، في جميع الحضارات، قد أمكن التغلب على رعب الموت، المتغلغل في أعماق الوعي الإنساني، عن طريق التعرض الإرادي لخطر الموت، لا بل التضحية بحياة النفس من أجل الأولاد أو العائلة أو الوطن أو الدين.

الإنسان العاقل المجنون[32]

حين قَرَّ عَزمي، في إثر مختلف تجاربي الفكرية والمعيشة، على التصدي المباشر للأنثربولوجيا في كتابي **البارادايم المفقود: الطبيعة الإنسانية،** كانت كل الحماقات السياسية والاجتماعية والحربية، الفردية منها والجماعية، التي لاحظتها قبل الحرب وخلال الحرب وأثناء الحرب

32. باللغة اللاتينية في الأصل: (*Homo sapiens demens*)؛ ومعناها ما ذكرنا. [المترجم]

الباردة، هي الباعث الذي حملني على الربط بين **أومو ديمنس**[33] **وأومو سابينس**[34] على نحو متناقض وغير قابل للانحلال في الوقت نفسه.

إن الذي سمح لي بهذا الجمع بين الأضداد هو إدراكي للتناقضات الإنسانية، تلك التي عَبَّرَ عنها، على نحو رائع ونهائي، الفيلسوف بليز باسكال الذي أصبح أحد مصادري الدائمة. وهذا الوعي الذي يوجب على الفكر مواجهة التناقض، وليس استبعاده، قد وجدته أيضًا لدى هيغل، وعلى نحو جوهري أعمق لدى هيراقليطس الذي كتب قائلا: «إن الوِئام والشِّقَاق هما أَبَوَا كل شيء» و«إن النَّقيض مفيدٌ، وعن الصراع ينشأ أجمل انسجام».

ويجد التعقيد الإنساني تعبيره في سلسلة من الثنائيات القطبية:

- **أومو سابينس** (العاقل، الحكيم) هو كذلك **أومو ديمنس** (المجنون، الهاذي)؛

- **أومو فابر**[35] (صانع الأدوات، التقني، الباني) هو كذلك **أومو فيدليس**[36] أو **ريليجيونيس**[37] أو **ميثولوجيكوس**[38] (المؤمن،

33. نقحرة: (*Homo sapiens*)؛ ومعناها: «الإنسان العاقل». [المترجم]
34. نقحرة: (*Homo demens*)؛ ومعناها: «الإنسان المجنون». [المترجم]
35. نقحرة: (*Homo faber*)؛ ومعناها: «الإنسان الصانع». [المترجم]
36. نقحرة: (*Homo fidelis*)؛ ومعناها: «الإنسان المؤمن». [المترجم]
37. نقحرة: (*religionis*)؛ ومعناها: «المتديّن». [المترجم]
38. نقحرة: (*mythologicus*)؛ ومعناها: «الأسطوري». انظر الهامش السابق الذي أفردناه لمشكلة ترجمة كلمة (mythe) إلى اللغة العربية. [المترجم]

المِيقَان، المتديّن، الأسطوري)؛

- **أومو أيكونوميكوس**[39] المُنْصَرِف إلى مصلحته الشخصية هو كذلك غيرُ مُجْزٍ، ويجب أن يحلّ محلَّه **أومو لودنس**[40] (اللاعب) **وأومو ليبر**[41] (الذي يزاول أنشطة حرّة).

وبالجملة، إن الجوهر العقلاني الكائن في **سابينس** وفابر **وأيكونوميكوس** لا يمثل سوى قطب واحد مما هو إنساني (سواء تعلق الأمر بالفرد أو بالمجتمع أو بالتاريخ)، بينما يكتسي كل من الهوى والإيمان والأسطورة والوهم والهذيان واللعب أهميةً أقل ما يقال عنها إنها مساوية للجوهر المذكور.

وعلى ذلك، أستطيع القول إن الجنون ليس هو جنونَ أولئك المتاعيس الذين يُحبسون فحسب، ولكنه أيضًا جنونُ المَغَاضِب، تلك التي تشكّل نوباتِ جنونٍ عابرةً على التحقيق. إن جنون الشّطط أو الإسراف، ذلك الذي يَسِمُ الطموحات المَنْهُومةَ التي لا حدّ لها، لا نلفيه لدى الأفراد المتعطّشين إلى السلطة والثروات فحسب، ولكن نلفيه أيضًا لدى الدّول - ويمكنني القول لدى الحضارة الغربية نفسها التي يستبد بها وَهْمُ السيطرةِ على الأرض.

من أجل فهم التاريخ، ينبغي لنا أن نزاوج بين ماركس وشكسبير. وأعتقد أن فلوريو، ذلك الإيطالي اليهودي الأصل الذي تحوّل عن دينه

---

39. نقحرة: (*Homo æconomicus*)؛ ومعناها: «الإنسان الاقتصادي». [المترجم]
40. نقحرة: (*Homo ludens*)؛ ومعناها: «الإنسان اللاعب». [المترجم]
41. نقحرة: (*Homo liber*)؛ ومعناها: «الإنسان الحر». [المترجم]

وهاجر إلى إنجلترا[42]، كان مُلْهِم النزعة العدمية في تراجيديات شكسبير التي يغيب عنها كل خلاص.

لقد فهمتُ لاحقًا هذا الجانب الآخر من سابينس الموسوم بالمفارقة: إن العقل الفاتر، أي عقل الحساب والإحصاء والاقتصاد، غير إنساني إذ يعمى عن المشاعر والأهواء والسعادة والشقاوة، وكل ما تلتئم منه كينونَتُنا ذاتها.

إن العقلَ الخالصَ والجَليديَّ غير إنساني وغير معقول في الوقت نفسه. لذلك كان العيش فنًّا مُرِيبًا وصعبًا، حيث يجب إخضاع كلِّ هوىً لمراقبة العقل، حتى لا يُسْتَسْلَم للغَوَاية، وحيث يجب أن يكون الهوى مُحَرِّكَ كلِّ عقل، بدءًا من هوى المعرفة.

إن الدرس الكبير الذي استخلصته من ذلك هو أن كلَّ هوىً يجب ألاّ يَخْلُوَ من نور العقل المستعد للهداية، وأن كل عقل يجب ألاّ يَخْلُوَ من الهوى وَقُودًا له وطاقةَ اشتغالٍ.

قادني مساري نحو معرفةٍ معقدةٍ بما هو إنساني إلى المسألة القصوى التي لا يمكن تجنبها: ماذا تستطيع المعرفة الإنسانية أن تعرف عن الإنسان نفسه؟

لقد أدركتُ نقائِصَ نمطِ معرفتنا المهيمن الذي يقوم على الفصل

---

42. يريد جون فلوريو (John Florio) الذي قيل إنه كان صديقًا لشكسبير. لكن جون فلوريو ولد في لندن بإنجلترا، ولم تذكر المصادر أنه تحول عن دين أو مذهب؛ أما التحول عن اليهودية إلى المسيحية الكاثوليكية ثم البروتستانتية والهجرة إلى إنجلترا، فقد حدثا لأبيه ميكالانجلو فلوريو المولود في توسكانا. [المترجم]

(فصل هو متصل) والاختزال (اختزال الكل في عناصره المكونة له)، ومن هنا منشأ صعوبات المعرفة التي سأتطرق إليها في الفصل الأخير.

وأخيرًا، أدركتُ أن أعظم الأمور المجهولة للمعرفة يتمثل في المعرفة نفسها.

الإنسان الإدغاري[43]

لم أستطع ولم أشأ الهروب من تعددية الأقطاب الإنسانية، لكنني حاولت دمج العقلانية في كياني بقدر الإمكان وربطها بما ينفلت منها، ألا هو شعر الحياة الذي ينطوي على الهوى. وما كان في وسعي الهروب لا من نوبات الغضب ولا من نوبات الإيروس المجنونة.

أنا **فابر**، بقدرٍ زهيد من جهةِ أنني متعدّدُ الصنائع، وبقدرٍ عظيمٍ من جهةِ أنني مهندسُ أعمالي، وبخاصّةٍ الفكر المعقد.

وأنا **ريليجيونيس**، إذ إنني آمنتُ، طوال خمس سنوات، بالخلاص الأرضي عن طريق الشيوعية، لكنني حافظت على دين الأخوة والأرض-الوطن.

وأنا **أيكونوميكوس**، إذ إنني أجترمُ من راتبي بوصفي باحثًا ومن عائدات حقوق مؤلفاتي، لكنني **أيكونوميكوس** ما أَحَبَّ المال قَطُّ، ذلك لأنني بَذَّرتُ مكاسبي في وقت مبكر وأجدني في مساء عمري

43. باللغة اللاتينية في الأصل: (*Homo edgarus*)؛ ومعناها ما ذكرنا، نسبة إلى الاسم «إدغار». [المترجم]

عاريًا.

وأنا **لودنس**، إذ إنني أعشق اللعب والمزاح والتنكيت، مثلما أعشق المباريات الكبيرة في كرة القدم والكرة المستطيلة، وأنا أيضًا **ليبر** إذ إنني غالبًا ما انهمك في أنشطة حرّة.

أما عن الثنائية القطبية القصوى، أعني ثنائية النثر/ الشعر، فإنني أحاول قدر المستطاع الهروب من النثر الذي تفرضه عليّ الالتزامات، ولكن أيضًا قيود حياتي وحضارتي. أحب بلوغ الحالات الشعرية، ولو كانت عابرة، مثل النزهة القصيرة التي قمت بها في بداية فترة ما بعد الزوال بينما كانت الشمس تغمر شارع بلان-دي-بالي في مونبلييه.

لذلك، اكتشفتُ في نفسي أربعةَ شياطين (بالمعنى اليوناني للكلمة) يبدو أنهم يملكونني من الخارج ويلهمونني من الداخل في الوقت نفسه. إنهم متنازعون ومتكاملون، ولقد جعلوا مني ما أنا عليه، وهم يفعلون ذلك من دون توقف: عقل/ دين/ ارتيابية/ سِرَّانِيّة.

لقد تحدثتُ عن العقل الضروري وغير الكافي، كما تحدثت عن دين المحبة والأخوة الذي أعتنقه. وذكرتُ عدميتي الطفوليةَ التي تحولت لاحقًا إلى نزعةٍ ارتيابيةٍ تزاول نشاطها حتى في قلب الدين. أما السِّرَّانِيّة، فهي من ضروب الدهشة التي تكتنفني خلال انفعالات حياتي الشعرية.

الشُّبُوب[44] وعدم الاكتمال

خلال فترة عملي في مجلة **أرغيمون**، وقبل تحرير كتاب **البارديم**، أدهشتني نظريةُ لوي **بولك** التي تقول إن الإنسان حيوانٌ رئيسٌ[45] حافظَ على طابعٍ جنيني، بخلاف الحال في القردة: لا يوجد جهازٌ شَعْرِيٌّ على جسمه، ووجهه مستقيمٌ وليس ممدودًا مثل خَطْمٍ، كما أن ثمة قُلْفَة تغلّف حَشَفَته. ومن الناحية النفسية والوجدانية، يستطيع الإنسانُ البالغ المحافظةَ على فضول الطفل وتطلعات اليافع، علاوة على مشاعر المودة القوية حِيَال الأقارب والأصدقاء. ومن هنا منشأ الفكرة التي مفادها أن سيرورةَ الأَوْمَنَة[46] كانت، في الوقت نفسه، سيرورةَ شُبُوبٍ وسَرْدَمَيْنِيَةٍ[47] ودَمْغَنَةٍ[48] وأيدَنةٍ[49].

ومن هنا، أيضًا، منشأ فكرة عدم الاكتمال المقترن بالأنسنة[50]. يَخْلُق

---

44. ترجمة: (Juvénilisation)؛ و«شُبُوب» مصدر شَبّ، كما جاء في **لسان العرب**. والمراد، كما يذكر المؤلف في مواضع أخرى من كتبه، محافظة الإنسان البالغ على صفات الجنين غير المتخصصة علاوة على صفات الشباب النفسية. [المترجم]

45. ترجمة: (primate). [المترجم]

46. تعريب: (hominisation)؛ والمراد سيرورة التطور من الحيوان الرئيس إلى الإنسان. وهو تعريب اجتهادي آثرناه ابتغاء تمييز الكلمة عن قريبتها (humanisation). [المترجم]

47. ترجمة: (bipédisation)؛ والمراد تطور قدرة السير على قدمين. وقد اعتمدنا هاهنا طريقة اللصق (سير + قدمان)، كما هو الحال في «سرنمة» (سير + نوم)، وحافظنا للجزء الثاني من المركب على صيغة المثنى بزيادة ألف ونون في حالة الرفع، وياء ونون في حالتي النصب والجر. وهي ترجمة اجتهادية. [المترجم]

48. ترجمة: (cérébralisation)؛ والمراد تطور بنية ووظائف الدماغ. وهذه هي الترجمة المعتمدة من قبل المنظمة العربية للترجمة. [المترجم]

49. ترجمة: (manualisation)؛ والمراد تطور استخدام اليدين. وهي ترجمة اجتهادية. [المترجم]

50. ترجمة: (humanisation). [المترجم]

عدمُ الاكتمال شعورًا بالعوز والغياب، وحاجةً إلى الحب والحماس، وتشوقًا إلى المطلق. ولقد شخَّص هايدغر هذا البحث عن المطلق من خلال القلق الذي يكتنف وجودنا، هذا الذي يعوزه شيء ما وسيعوزه دائمًا.

التبدّل والتقلّب الإنسانيان

يمكن أن تكون العلاقات بين كل من **سابينس وديمنس** و**فابر** و**ميثولوجيكوس وأيكونوميكوس** و**لودنس** وليبر مَرِنةً ومتغيّرةً في كل فرد.

من هنا منشأ تبدّلاتِ كثيرين منّا، إذ يستطيعون إتيان أسوأ الأمور وأحسنها، وتراهم متفهّمين في حالاتٍ، وضيّقي الأفق فاقدي الإحساس في حالاتٍ أخرى، طيبين وأشِرّاء على التعاقب، مثاليين وسفهاء. إن العلاقاتِ بين كلّ من العقلانية والهوى والهذيان والإيمان والأسطورة والدين، في كل واحد منّا، قابلةٌ للاستبدال بعضها ببعض، غيرُ مُسْتَقِرّة، وقابلة للتغيير. ليس الإنسان لا صالحًا ولا طالحًا، ولكنه معقّد ومتقلّب.

لا بد لنا، أيضًا، من أن نجعل في الحسبان التطورات والتحولات. كل امرئ يتطور منذ الطفولة، بفعل الظروف والتأثيرات والتجارب، وكذلك الحال في سن البلوغ والشيخوخة.

وأخيرًا، يلزمنا أن نجعل في الحسبان الانحرافات والانقلابات،

سواء على الصعيد الفردي أو على صعيد أمة من الأمم.

ثمة ما لا يحصى من الانحرافات التي تسببّت فيها الاضطراباتُ التاريخية، والتي تتسبّب هي نفسها في اضطراب العقول وتُوقِعُها في ضروب الغواية والضلال. من جملة الانحرافات العديدة التي لاحظتها أنني رأيت برلمان الجبهة الشعبية يصوّت على تفويض جميع السلطات إلى الماريشال بيتان. ورأيت انحراف بعض دعاة السلام من اليساريين نحو فيشي، ومشاركتهم لا في **سلام ألماني**[51] (في 1940 وبداية 1941)، ولكن في الحرب الألمانية وفي النازية. ورأيت طائفة من الاشتراكيين ينحرفون نحو أوروبا نازيةٍ ظنوا أنها ستصبح اشتراكية. ورأيت الزعيم الشيوعي جاك دوريو يلتحق بصفوف النازية ويموت في زي فافن إس إس[52]. ورأيت في ألمانيا، خلال الثلاثينيات، جماهيرَ مناهضةً للفاشية تتحول إلى الفاشية، كما رأيت في إيطاليا، لاحقًا، جماهيرَ فاشيةً تتحول إلى مناهضة الفاشية. ورأيت شيوعيين كانت تحرّكهم أروع إيديولوجيا أخوية وقد تحولوا إلى أشخاص غير إنسانيين وقساة القلوب. ورأيت طائفة من المثقفين، وعلى رأسهم رسول العقلانية جوليان بيندا، يبررون المحاكمات المُزَوَّرة والفاحشة التي طبعت العهد الستاليني. ورأيت كيف تحولت دومينيك دوسانتي، تلك الهُرَيرة اللّعُوب، إلى نَمِرَةٍ شَرِسة، وكيف ألّفت الكتاب الوضيع والغبي الذي يحمل عنوان **وجوه وأقنعة تيتو وأعوانه**. ورأيت بيار كورتاد،

---

51. باللغة اللاتينية في الأصل: (*pax germanica*)؛ ومعناها ما ذكرنا. [المترجم]

52. نقحرة: (Waffen SS)؛ وهو الجناح العسكري للشوتزشتافل (أو «سَرِيَّة الحماية»). [المترجم]

المرتاب والحصيف، وأيضًا العملاق بيار إيرفي، يبرران بعبارات دنيئة محاكماتٍ هي نفسها دنيئة. ورأيت الطيّب أندري موندوز يضفي الشرعية على الاغتيالات والسِّعايات التي استهدفت المصاليين[53] من قِبَل جبهة التحرير القومي: «ماذا تريد؟ إننا لا نصنع العُجَّة من دون كسر البيض». وإني لأرى اليوم انحرافات فكرية عجيبة، وسنرى المزيد منها في المستقبل...

إن التحولات المترتبة عن التقدم في السن، وعن التجربة، ليست بالضرورة مَجلَبَة للفطنة. هكذا تحول كثيرٌ من الشيوعيين، الماويين والتروتسكيين، الذين تخلصوا من أوهامهم، إلى النزعة القومية المعادية للأجانب أو إلى دين طفولتهم. أما فيما يخصّني أنا، فلقد اعتنقت الاستقلال السياسي الكامل، مع محافظتي على تطلعاتي الشبابية، ونبذي لكل صنوف التفكير المتحزّب إلى الأبد.

وأخيرًا، توجد هذه الظاهرة العجيبة التي تحوّل قناعةً معينةً إلى نقيضها: الإشراق. هذا ما حدث لشاول الذي أصبح بولس في طريقه إلى دمشق، وهو ما حدث أيضًا لأوغسطينوس الجَاحِد الماجن الذي صار نموذجًا يُحتذى في الإيمان والتقوى، وهو ما حدث كذلك لبول كلوديل خلال قداس عيد الميلاد سنة 1886 في كاتدرائية نوتردام، حيث أشرقت على الملحد أنوارُ النعمة: «في لحظةٍ خاطفة تأثر قلبي وآمنتُ». وبالمثل، تحول شارل بيغي وإرنست بسيكاري، حفيد إرنست رونان، إلى الدين في بداية القرن العشرين. وفي وقت لاحق ، تحول

53. يريد الزعيم الجزائري مصالي الحاج (1898-1974) وأنصاره. [المترجم]

آخرون، مثل بول إيلوار، إلى الشيوعية هربًا من العدمية («لولا الحزب، لفتحتُ صنبور الغاز»[54]).

مسار الروح السِّردابي

ثمة تحولات جرت على نحو متدرّج من دون شك، لكنها ظلت، لفترة طويلة، غير مرئية للغير وربما للذات نفسها، ذلك لأنها ثمرة مسار في سرداب الروح. وكان هذا هو حال الشاب خوان كارلوس الذي نشأ في كنف الفرانكوية المتشددة، ولمَّا اعتلى العرش أصبح ضامنًا للديمقراطية الإسبانية. وكذلك كان حال ميخائيل غورباتشوف، الأمين العام للحزب الشيوعي، والأباراتشيك[55] الكبير، الذي تحوّل إلى إنسيّ أوروبي وكوكبي، والذي لا شك في أنه ابن الإنسانية الماركساوية[56]، مع أنه تجاوزها. وأخيرًا، إن الروح السِّردابية هي التي حوّلت الأسقف خورخي ماريو بيرغوليو، الاتّباعي في الظاهر، إلى البابا فرانسيس الذي أحيا رسالة الأخوة الإنجيلية وأصبح المتحدث باسم الإنسانية في مواجهة الخطر البيئي والجموح المُعَوْلَم نحو التربّح.

---

54. يقصد الانتحار. [المترجم]

55. نقحرة: (apparatchik)؛ وهي في الأصل كلمة روسية مركبة (аппаратчик)، وتعود إلى العهد السوفياتي، ومعناها الحرفي «عضو الجهاز»، أي الإطار المسؤول في الدولة والحزب الحاكم. [المترجم]

56. تعريب: (marxien)؛ ولم نجد بُدًّا من تعريبها على هذا النحو حتى نميزها عن الصفة (marxiste) التي نقابلها عادةً بـ«ماركسي». ولو لم تكن هذه الصيغة الأخيرة هي السائدة، لعكسنا الأمر، إذ نعتقد أن مقابلة (marxien) بـ«ماركسي» هي الأسلم لغةً. وتزعم «الماركساوية» أنها أقرب إلى روح فكر ماركس من الماركسية التقليدية وتأويلات ماركس المختلفة. [المترجم]

والحق أقول إن من الأمور الأكثر مواساة في هذا العالم، بالنسبة إلي، علمي أنه في الأرواح الخاضعة في الظاهر لما غُرس فيها من قناعات، سواء كانت سياسية أو دينية، أمكن لعمل الوعي السِّردابي أن يغيّر نحو الأفضل أُناسًا أصبحوا، مثل غورباتشوف أو البابا فرانسيس، لسان حال النوع الإنساني.

الثالوث الإنساني

لقد شرحت التعقيد الخاص بالأفراد. ولا بد من أن أشير باقتضاب إلى أن هذا التعقيد الفردي هو أحد أطراف الثالوث الثلاثة المعقد الذي يحدد ما هو إنساني، أعني ثالوث الفرد والمجتمع والنوع.

في هذا الثالوث الإنساني، كما في الثالوث الأقدس، نجد أن كل طرف يُوَلِّدُ الطرفين الآخَرَيْن ويَتَوَلَّدُ عنهما في الوقت نفسه. وهكذا يَتَوَلَّدُ الأفراد عن النوع كما يُوَلِّدُونَه في الاتصال الجنسي التناسلي. إن ضروب التفاعل بين الأفراد تُوَلِّدُ المجتمع، لكن هذا الأخير يمارس تأثيرًا رجعيًا في الأفراد الذين يدمجون في ذواتهم لغته وثقافته، وبذلك يحقق إنسانيتهم الكاملة. إن كل طرف من الأطراف الثلاثة يوجد في الطرفين الباقيين. وهكذا يوجد المجتمع، بوصفه كُلاًّ، داخل الأفراد الذين يوجدون داخل المجتمع، ويكمن النوع، بوصفه رصيدًا وراثيًا، في الحمض النووي لكل خلية من خلايانا، ويَضُمّنا في دائرته في الوقت نفسه.

إننا نملك حياتنا وجيناتنا، لكننا مملوكون لقوتها المنظمة التي تشغّل وظائف قلبنا ورئتينا وشرايينا وجهازنا الهضمي.

يُضاف إلى ذلك أن أرواحَنا تتملكها أساطيرُ وأديان وإيديولوجيات صارت، على الرغم من كونها نتاجات للفكر الإنساني، مُتسيِّدةً ومسيطرةً وطالبةَ عبادةٍ وقرابين. وأخيرًا، نلفي أنفسنا في حال النشوة وشبهَ مملوكين خلال الحب وألوان الحماس والرقص.

«مستيقظون وهم نيام»، هذا ما كتبه هيراقليطس. وبمعنًى من المعاني، نحن مُسَرْنَمُون مستيقظون ظاهِرِيًّا.

آمل أن يكون هذا الفصل حافزًا لقارئه على تنمية إدراكه للتعقيدات الإنسانية التي غالبًا ما تحجبها النزعات التبسيطية والأحادية والوثوقية.

5

تجاربي السياسية:

في تَجِيج القرن

لاَحَتِ السياسةُ في ذهني حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، بعد المظاهرة المناهضة للبرلمان التي جرت في 6 فبراير/ شباط سنة 1934. لقد رأيت زملائي في الفصل ينقسمون ويتنازعون بعنف أحيانًا، بين مؤيدي كروا-دو-فو وأنصار الجبهة المشتركة الاشتراكية-الشيوعية (التي سرعان ما توسعت بعد انضمام الراديكاليين إليها لتشكّل الجبهة الشعبية).

ولَمَّا كنتُ خِلْوًا من أيّ قناعة محددة مسبقًا، كانت الآراء المتضاربة تعزز نزعتي الارتيابية التي أفدتها من قراءتي لأعمال أناتول فرانس.

ثم إنني صنعتُ، خلال تلك السنوات المضطربة، ثقافتي الخاصةَ التي ظلت أساسَ أفكاري السياسية المتعاقبة إلى غاية اليوم. لقد جمعتْ هذه الثقافةُ بين التقليد الإنسيّ الفرنسي، من مونتين إلى رومان رولان مرورًا بمونتسكيو وفولتير وديدرو وروسو وهوغو، من جهة، وبين

الإنسيّة الروسية كما نلفيها عند تولستوي، دوستويفسكي على الخصوص، من جهة أخرى؛ وتنطوي هذه الإنسيّةُ الروسية على حساسيةٍ حِيَال البؤس والمآسي الإنسانية نلفيها غائبةً عن الإنسيّة الغربية، وهي التي رَسَّخَت في جَوَّتي، إلى الأبد، الارتياعَ من كلّ ما يسيء إلى الآخرين ويُذِلُّهم.

لقد زرع ذلك في نفسي نفورًا ثّابتًا لا يَلين من الازدراء أو النبذ العرقي والديني والإثني. وهذا ما تبنّتْهُ بقوةٍ أفكارُ الثورة الفرنسية العظمى علاوة على الأفكار الاشتراكية.

ولا شك في أن إدراكي بأنني أنحدر من شعب ملعون منذ ألف سنة، والذي غَذَّته ضراوةُ مناهضةِ السامية خلال الثلاثينيات والأربعينيات، قد عزّز في نفسي التعاطفَ مع كلّ الملعونين والمغلوبين والمستعبَدين والمستعمَرين. لكنني حرصتُ دائمًا على وضع نفسي في مستوى الإنسانية العام.

دروس ما قبل الحرب

لقد أدركت، على نحو استعادي بعد انتهاء الحرب، أن الثلاثينيات شهدت، بدءًا من أزمة 1929 الاقتصادية، تَشَكُّلَ إعصارٍ تاريخي ضخم انتهى، من 1940 إلى 1945، إلى حرب عالمية أسفرت عن مقتل ما بين خمسين وسبعين مليون نسمة، وعدد أكبر من الجرحى والأيتام والأرامل.

لقد وقع ذهني في دوامة الإعصار الذي اكتنف سنوات ما قبل الحرب، فرانت عليه ضروب التشوّش. فإلى مفردتي الديمقراطية والرأسمالية، اللتين كانتا تثيران طائفة من التساؤلات، انضافت الاشتراكية والشيوعية والثورة والفاشية ومناهضة الفاشية، هذا بينما كانت ألمانيا النازية تتسلح من جديد، مطالبةً بأراضٍ وحائزةً أخرى، وكانت محاكمات موسكو المجحفة تجري، وكانت الجبهة الشعبية تتسلم مقاليد السلطة في فرنسا، وكانت الحرب قد اندلعت في إسبانيا[57] في ظل التدخلات الألمانية والإيطالية والسوفياتية. ثم كانت اتفاقيات ميونيخ التي سلّمت تشيكوسلوفاكيا إلى ألمانيا الهتلرية.

خلال بحثي عن حقائقي السياسية، شعرت بدوافع متناقضة تتوزّعني. بدت لي الثورة ضرورية ولكنْ خطيرة، وبدا لي الإصلاح ضروريًا ولكنْ غير كافٍ. لقد تحوّلتُ إلى النزعة السّلمية تحت تأثير شهادات الناجين من حرب 1914-1918، وجعلتني قناعتي السّلمية أَعْمَى عن الإمبريالية النازية المفزعة التي كانت تهدد أوروبا.

واصلتُ البحث عن حقائقي السياسية من خلال ما لا يحصى من المحاولات، وانضمَمْتُ أخيرًا إلى الباحثين عن طريق ثالثة من شأنها التغلب على الأزمة الاقتصادية وأزمة الديمقراطية ، وقبل كل شيء تجنب الفاشية والستالينية. وفي سنة 1938 ، التحقت بالحزب الجبهوي

---

57. لقد اشمأزّت نفسي من القمع التي تعرّض له الأناركيون والبوميون على يد الجمهورية الإسبانية في خضم الحرب، وكان ذلك سبب أول عمل نضالي أنجزته في صفوف منظمة «التضامن الأممي المناهض للفاشية» التحررية.

الصغير الذي أسسه غاستون بيرجري سنة 1936، والذي قاتل على جبهتين، بوصفه حزبًا مناهضًا للفاشية والستالينية، ودافع عن الاشتراكية الديمقراطية ضمن الإطار القومي.

لقد وَعَيْتُ أزمةَ الديمقراطية، وإسهامَ الماركسية النقدي حِيَال الرأسمالية، والخِزْيَ الملازمَ للنازية علاوة على الخِزْيِ الملازمِ للستالينية – على الرغم من أن هذا الوعي الأخير تَقَيَّضَ له أن يضعُفَ ثم يتلاشى خلال سنة 1942.

لم أفطن للسّرنمةَ الذي استولت على الشعب والسياسيين والعسكريين، خَلاَ بضعِ حالات جديرة بالملاحظة، والتي جعلتهم يعمون عن الخطر الأساسي في ذلك الوقت: أعني الصعود المفزع لقوة ألمانيا النازية. لقد رامت هذه الأخيرةُ، مسترشدةً بأسطورةٍ هاتِرةٍ عن تفوّقها «الآري»، لا استعادةَ المناطق الناطقة بالألمانية فحسب، ولكن أيضًا حيازةَ مجالها الحيوي، في المقام الأول، عن طريق استعمار الشعوب السلافية.

لم نفطن (وأنا جزءٌ من الضمير) لطبيعةِ وصعودِ الشموليةِ التي بدأت جزئيًا في إيطاليا، ثم اكتسحت الاتحاد السوفيتي على نحوٍ كاملٍ، كما اكتسحت ألمانيا النازية على نحوٍ كاملٍ تقريبًا، حيث بقي قِطَاعٌ من الاقتصاد خاصًّا تحت سيطرة الدولة.

كانت المعاهدة الألمانية–السوفياتية صاعقةً غيرَ متوقّعةٍ على الإطلاق. وبينما كانت المفاوضات تراوح مكانها بين السوفياتيين

والأنجلو-فرنسيين، الذين رفضوا السماح للاتحاد السوفياتي بدخول بولندا في حالة الغزو النازي، إذا بالقوتين المتعاديتين للغاية إيديولوجيًا وسياسيًا، أعني ألمانيا النازية والاتحاد السوفياتي، تبرمان معاهدة عدم اعتداء تتضمن تقسيم بولندا وتوزيع مناطق النفوذ والتعاون الاقتصادي وحتى تسليم الشيوعيين الألمان اللاجئين إلى الاتحاد السوفياتي إلى النازيين.

ما هي الدروس التي يسعنا استخلاصها من هذه التجربة؟ إنه درس اللاوعي السّرنمي الذي يَسِمُ العصور السابقة والممهّدة للفواجع التاريخية. إنه درس العواقب الجسيمة المترتبة عن الأخطاء وضروب العمى وأوهام القادة والشعوب. إنه درس العجز العام عن استيعاب طابع الشموليةِ الجديد، ولا سيما العجز عن فهم رغبة ألمانيا الهتلرية العنيدة في السيطرة على أوروبا السلافية واستعمارها.

هذه الأحداثُ المتعاقبةُ غيرُ المتوقعةِ من شأنها أن تذهل المرء، بدءًا من أزمة 1929 الاقتصادية وتسلّم هتلر السلطة، ووصولاً إلى المعاهدة الألمانية-السوفياتية التي كانت الحدث الأقصى والأكثر إثارة للدهشة في فترة ما قبل الحرب.

دروس الحرب والاحتلال

بعد سرنمةِ «الحرب المضحكة»، التي هي حالةُ سلامٍ في ظل الحرب، دَهِشْنا من الهجوم الألماني المُباغِت في 10 مايو/ أيار 1940 وانهيارِ الجيوش الإنجليزية-الفرنسية. لم يحدث مِنْ قَبْلُ أن تعرضت فرنسا

للغزو الكامل بهذه السرعة، ولم يحدث مِنْ قَبْلُ أن انهارت جيوشها كاملةً بهذه السرعة. مرة أخرى، يصبحُ ما لا يُصَدَّقُ واقعًا.

ألقى نظامُ فيشي، على الفور، مسؤوليةَ الفاجعة على الجبهة الشعبية، متناسيًا مسؤولية الأركان العامة التي أرسلت الجيوش الحليفة إلى بلجيكا وهولندا، بينما كان هاينتس غوديريان يَنفُذ بدباباته في مرتفعات آردن – «غير القابلة للاختراق» و«غير السالكة» بحسب الماريشال بيتان –، فاستولى على سدان وهاجم القوات الإنجليزية-الفرنسية من الخلف، ثم زحف نحو دانكيرك. لقد انهارت كل العُدَد الفرنسية أمام هجومات الفيرماخت. وتمت الاستعاضة عن بول رينو بالماريشال بيتان الذي طلب الهدنة في 17 يونيو/ حزيران، من بوردو، وحصل عليها في 24 يونيو/ حزيران مع العواقب التي نعلمها.

كانت تجربةُ يونيو/ حزيران 1940 المذهلةُ هي تجربةَ فرنسا المنحلّة. لم يقتصر الأمر على تفكّك الجيش وتشتّت القوات فحسب، ولكن كان ملايين الفرنسيين أيضًا، من الشمال وباريس والألزاس واللورين وبروتانيا والوسط، على متن السيارات والعربات وسيرًا على الأقدام، يندفعون على الطرق قاصدين الجنوب، وأحيانًا تحت قصف الطائرات الألمانية. ولقد ظهرت ألوانٌ لا تُحصى من التضامن كما ظهرت صنوفٌ لا تُحصى من رفض التضامن. وهذا أحدُ الدروس التي استخلصتها من هذه التجربة: إن الكوارث (ومنها وباء كوفيد الشامل) تكشف عن سلوكين متعارضين، هما الإيثار والأنانية.

ومن جهتي، لقد خَبَرْتُ وقتئذٍ، وأنا في تولوز، صورَ التضامنَ بين

الطلاب اللاجئين، والرعايةَ الكريمة التي كان الأستاذ دانيال فوشي يخصّهم بها استقبالاً وإطعامًا وإيواءً.

كِدْتُ أنسى الإشارة أيضًا إلى سمة نموذجية تطبع الكوارث. وأعني تناسل الإشاعات: منذ النكسات الأولى، قِيلَ إن الألمان زرعوا في صفوف الجبهة الداخلية جواسيس ومُخرِّبين مدنيين يشكلّون طابورًا خامسًا. وقد حصدت عمليةُ مطاردةِ الجواسيس بعضَ الضحايا الأبرياء. وفي أعقاب الهزيمة، انتشرت تلقائياً نبوءاتُ القديسة كلوتيلد التي بشّرت بتعافي فرنسا وانتصارها. وبُثَّت إشاعاتٌ لا حصر لها في ظل الاحتلال، بما في ذلك الإشاعات المتفائلة التي تتحدث عن فشل الإنزال الألماني في إنجلترا.

كانت لأسطورة بيتان قوةٌ وصائية جسيمة، لكنها تضاءلت شيئا فشيئا. إن بطلَ معركةِ فردان، ماريشالَ فرنسا، لا يمكن إلا أن يخدم مصالح الأمة. كانت صورتُه الأبوية[58] مُطَمْئِنةً وحافظةً. ولقد تطلب الأمرُ كثيرًا من الخذلان لإضعافها. وفي الواقع، على الرغم من إجماع وسائل الإعلام، في ظل الاحتلال، على الإشادة بالتعاون مع المحتل، وعلى الرغم من التصريحات الدوغولية التي كانت تشجب الخيانة على أمواج إذاعة لندن، فإن جزءًا كبيرًا من الرأي العام الفرنسي قد شكّل تصوره الخاص الذي كان يُطَمْئِنُ ويبرّر في الوقت نفسه موقفَ الانتظار

58 . في الأصل: (grand-paternelle)، نسبة إلى (grand-père) أي الجدّ؛ ولعل المراد لا يختلف عما ذكرنا. [المترجم]

والترقب: إنها البيتانية-الدوغولية[59]. كان بيتان هو الدرع الواقي، وكان دوغول هو سيف التحرير. حتى إن فكرة تواطئهما قد تداولتها الألسن خلال المحادثات الخاصة.

أدّت القيود، ولا سيما الغِذائيّة، إلى ازدهار السوق السوداء. وقد نشأ عن ذلك كثيرٌ من الفساد، ولكن نشأت عنها أيضًا ألوانٌ من التضامن. كانت عائلاتٌ من المزارعين (إذ إن فرنسا كانت لا تزال ريفية في معظمها) ترسل إلى أقاربها في المناطق الحضرية الزبدةَ والأجبانَ والدجاجَ، وغير ذلك. وكان الأصدقاء يتبادلون الخدمات، وكذلك كان الحال بين المُموِّنين والزبائن. وكانت السيدة بلان، مُصفِّفةُ الشَّعر في ليون، حيث عاش أبي لفترة، تعطي الأخيرَ مُقدَّداتٍ متنوعةً من اللحوم وغيرَها من الأقوات التي كانت تتلقاها هدايا من قِبَل الزبائن.

لقد كشف الاحتلالُ عن دهاءِ العيش الإنساني العجيب عندما تسود النُّدرة. وكشفَ عن مقاومةٍ جماهيرية، سلبيةٍ في أكثر الأحيان، للحقائق الرسمية، مُعَبِّرَة عن نفسها أحيانًا بالصفير في قاعات السينما حين تُعرض نشرةُ الأخبار الألمانية. ومن المؤكد أن المقاومة الجماهيرية لم تكن مقاومةً مباشِرةً للمحتل، بل إنما كانت مقاومةً لعسر العيش الذي خلقه.

وعلى الرغم من كل وسائل الإعلام الرسمية التي أشادت بالرعاية الألمانية وبانتصارات الفيرماخت، فإن جزءًا لا يستهان به من الرأي

59 . في الأصل: (Pétaino-Gaullisme)، نسبة إلى دوغول وبيتان. [المترجم]

العام ظل معاديًا للألمان، رافضًا تصديق أحاديث انتصاراتهم.

أحدثتِ الهزيمةُ والاحتلالُ والتعاونُ مع المحتل ثم المقاومةُ تحولاتٍ عجيبةً في أذهان كثيرٍ من الناس. لقد أشرتُ سابقًا إلى أن طائفة من دعاة السلام اليساريين قبِلوا، بسبب الارتياع من الحرب، **السلامَ الألماني**. ولَّما تلاشى هذا السلام في خضم الحرب التي انتشرت في ربوع العالم كافة، سَاخَ دعاةُ السلام القدماء هؤلاء في إحرابيةٍ مؤيِّدةٍ للألمان وأدانوا المقاومة. أما جوزيف دارنان، فلعلّه سعى إلى المغادرة نحو لندن خلال سنة 1940، لكنه في سنة 1943 صار رئيسًا للميليشيا[60]، وهي أسوأ أشكال التعاون مع الاحتلال. وأصبح بعض الوطنيين المناهضين للألمان متعاونين مؤيدين للنازية. وأصبح آخرون شيوعيين أو اشتراكيين، أمثال كلود روا ودانيال كورديي وإيمانويل داستيي دو لافيجري. كما أن طائفة من الأمميّين أصبحوا وطنيين.

شهدتِ المقاومةُ صراعاتٍ داخليةً بين الشيوعيين والدوغوليين، لكنها لم تكن عنيفة البتة كما كان الحال في يوغوسلافيا. كان يوجد ضمن قادة «حركة التحرير القومي»[61] القوية كثيرٌ من العملاء الشيوعيين، الأمر الذي أدى إلى التخفيف من حدة المنازعات. وكانت توجد أيضًا صراعاتٌ داخل المجلس القومي للمقاومة، لكن المقاومة كانت بالنسبة إلى كثيرين، بما فيهم أنا، تجربةَ أخوّةٍ رائعة. لقد كان التحرير لحظةً سامية، لكنها لم تَخْلُ من جُفَاءَاتٍ: جزُّ شَعْر النساء اللواتي عاشرهن

60. يريد تنظيم «الميليشيا الفرنسية» (Milice française). [المترجم]

61. ذكرها المؤلف مختصرة بحروف: (MLN). [المترجم]

الألمان وإهانتهن، والوشايات الكاذبة، علاوة على ضراوة عملية التطهير التي حوّلت خطايا بسيطة إلى خطايا عظمى.

درسُ الفترةِ: صارَ المحالُ واقعًا قائمًا عند انهيار فرنسا خلال سنة 1940، وتحوّلَ اليأسُ إلى رجاء منذ ديسمبر/ كانون الأول 1941، عند أول هزيمة ألمانية.

إن الانبثاقَ المذهلَ لما لا يُرتقب في التاريخ متمثلاً في معاهدة 1939 الألمانية-السوفياتية قد تعرّض للحجب والنسيان، بعد مُضِيّ سنتين، بسبب حدثٍ آخر غيرِ مرتقب: أعني مقاومة موسكو الْمُظَفَّرة للجيش الألماني. وكنت أحدَ أولئك الذين حجبوا المعاهدة، لا بل قَضَوْا ببراءة ذمّتها، سعداءَ بمقاومةِ موسكو غيرِ المرتقبة ودخولِ الولايات المتحدة غيرِ المرتقب في الحرب بعد الهجوم على بيرل هاربر.

لا بد لي، هاهنا، من أن أشير إلى الملابسات المدهشة التي أدّت إلى هزيمة ألمانيا الأولى على يد موسكو. بادئ ذي بدء، اضطر هتلر إلى تأجيل هجومه على الاتحاد السوفياتي لمدة شهر، بينما كان هذا الهجوم مُتَوَقَّعًا في مايو/ أيار 1941، ذلك لأن الجيشَ اليوناني قاوم العدوانَ الإيطالي بصورة كانت هي نفسها غيرَ متوقعةٍ، فطلب موسوليني المعونة من هتلر. وقد احتاج الجيش الألماني إلى مدة شهرٍ لغزو يوغوسلافيا، ودَحْر المقاومة الصربية ثم اليونانية، قبل دخول أثينا في أبريل/ نيسان 1941 واحتلال اليونان. واحتاج إلى ثلاثة أسابيع لإعادة بناء قواته كي يتمكن من مهاجمة الاتحاد السوفياتي في 22 يونيو/ حزيران. وخلال صيف سنة 1941، واجه الجيش الألماني، الذي اندفع نحو الاتحاد

السوفياتي، مقاومةً غير مرتقبة على الطريق المؤدّية إلى موسكو، فتخلّى مؤقتًا عن هذا الهدف ابتغاء غزو أوكرانيا. ولمَّا واصل الهجوم على موسكو خلال الخريف، تأخّرَ مرادُه بسبب أمطار طوفانية مبكّرة، وشُلَّتْ حركتُه من جَرَّاءِ الصقيع المبكر أيضًا على أبواب موسكو. إلى جانب ذلك، عمد ستالين، بعد أن علم من ريخارد زورغه، جاسوسه في طوكيو، أن اليابان لن تهاجم سيبيريا، إلى نقل جيشه من الشرق الأقصى عن طريق سكة الحديد العابرة لسيبيريا، وهو المُتعوِّد على القِرَّة والمجهّز بدبابات تي-34 وصواريخ كاتيوشا. وقام بتعيين الجنرال غيورغي جوكوف، الذي كانت عبقريته العسكرية حاسمةً خلال هذه الحرب، قائدًا لجبهة موسكو. وفي 5 ديسمبر/ كانون الأول 1941، شنّ جوكوف هجومًا أدى إلى تراجع القوات الألمانية بمسافة مائتي كيلومتر، فأنقذ موسكو. وفي 7 ديسمبر/ كانون الأول، هاجمت القوات الجوية اليابانية بيرل هاربر، فعرَّجت الولايات المتحدة نحو الحرب. وفي ظرف يومين، تغيّر مصير العالم.

إن الدرس الذي يَجمُل بنا أن نتعلّمه من هذا الصراع هو أنه قد رفع همجية الحرب إلى الذروة، ولا سيما الهمجية النازية. لقد أصبح أكثرُ البلدان الأوروبية تهذُّبًا وثقافة مُستعبِدًا للشعوب السلافية، كما أصبح، منذ 1942، يمارس الإبادة الجماعية في حق اليهود والغجر الأوروبيين.

البهجة وخيبة الأمل

في خضم المقاومة، نشأتْ آمال عظيمة في بناء عالم جديد. تطلعت طائفةٌ إلى مجتمع ديمقراطي واجتماعي منصف، وتطلعت أخرى إلى مجتمع أخوي على شاكلة الاتحاد السوفياتي كما كانوا تخيّلوه.

لقد اتخذت الحكوماتُ الائتلافية، خلال فترة ما بعد الحرب، تدابيرَ اجتماعية بالفعل. لكن العالم المأمول لم يتحقق. وبخلاف ذلك، لقد تحوّل تحالف الشرق والغرب إلى حرب باردة. وساد عصرُ تجلُّدٍ ستاليني جديد في الاتحاد السوفياتي. وتواجهت إمبرياليتان. وعلى هذا النحو، انتقلنا من البهجة إلى خيبة الأمل، ومن الرجاء إلى الخوف.

خلال السنوات الأولى من الحرب الباردة، كانت الإمبرياليةُ الأمريكية، التي كانت تحتكر السلاح الذري مؤقتًا، تحجب عني الإمبرياليةَ السوفياتيةَ والسيطرةَ الاستبداديةَ التي كانت تمارسها في حق الأمم التي أخضعتها. لقد منعني التفوقُ الأمريكي من أن أفهم أن النظام السوفياتي كان أسوأ الأنظمة في النصف الثاني من القرن العشرين، بينما كان في وسع الديمقراطية، في أماكن أخرى، أن تلطّف أحيانًا من تجاوزات الرأسمالية.

وحين انضمَمْتُ إلى الشيوعية، كنت أواري أسوأ وجوه الاتحاد السوفياتي، معتقدًا أنها صارت في ذِمَّة الماضي مُطْلَقًا. وبعد تقرير أندري جدانوف، في سنة 1947، الذي يدين كل أدب وكل ثقافة مستقلّين، لم أكن سوى مُدْرِكٍ ومنتقدٍ للاستغباء الثقافي، المفروض بأمر من الاتحاد السوفياتي. لقد شكّلنا، ديونيس وروبير وأنا، بدعم من بضعةِ آخرين، معارضةً «ثقافية» حازمةً، ولكن من دون التشكيك لا في السياسة

العامة التي كان ينتهجها الحزب ولا في طبيعته. لقد شجبنا فيما بيننا الاستغباءَ والكذبَ والوثوقيةَ والسِّعاياتِ بوصفها جميعًا من العيوب الجانبية والمؤقتة التي تَسِمُ الشيوعيةَ الستالينية، من دون أن نفهم أنها إنما تعكس طبيعةَ الشيوعيةِ الستالينية نفسها.

صِرْتُ أخرسَ سياسيًا خلال محاكمة فكتور كرافتشينكو، في سنة 1949، حتى بعد مقابلة مارغريت بوبر-نيومان التي جاءت للإدلاء بشهادتها لصالح المنشق السوفياتي. ولقد كشفتْ لنا هذه الأخيرة أنه، بعد إبرام المعاهدة الألمانية-السوفياتية، سلّم ستالين إلى هتلر الشيوعيين الألمان اللاجئين إلى الاتحاد السوفياتي. وهكذا انتقلتْ من معتقل غولاغ إلى معسكر الاعتقال رافنسبروك.

وأخيرًا، كان الخزيُ والحمقُ اللذين وَسَمَا محاكمة لازلو رايك، في سنة 1949، سببًا في حدوث قطيعة ذاتية في جَوَّتي، والتي صارت موضوعيةً بعد الإقصاء الذي تعرضت له في سنة 1951. لقد صِرْتُ مُدْرِكًا للطابع السِّرَّانِيّ الديني الذي يَسِمُ الحزب. رأيتُ كيف حوّل أشخاصًا كانوا في البدء طَيِّبين ومتسامحين إلى أشخاص متعصبين ضيّقي الأفق. لكن صنوفَ الخزيِ والبهتانِ المفرطة التي اجتمعت في هذه المحاكمة، كأنها عالمٌ مصغر، هي التي جعلتني أتقيأ حَرْفِيًّا كلَّ ملّتي واعتقادي. وعلى الرغم من هذا التمزّق الداخلي، فإن التمزّق الذي طال الرُّفْقَةَ الكبيرة، وصداقاتٍ عظيمةً على الخصوص، هو الذي كان مؤلمًا. لقد اضطررت إلى قطع الحبل السُّريّ الذي كان يمنعني من الولادة لذاتي. وكنت في الثلاثين من عمري.

ثم كان لا بد لي من القيام بنقد ذاتي، كامل وجذري، لست سنوات من العمى والأوهام، وهذا ما فعلته في سنة 1958. وكان لا بد لي، أيضًا، من فهم ماهية الشّر الذي وسم القرن العشرين: أعني شمولية الحزب الوحيد. لقد رفض كثيرون فكرة أن الخصميْن اللدوديْن، وهما النازية والشيوعية، إنما يشتركان في قاسم الشمولية. ولقد ساعد التعارضُ التّام القائم بين إيديولوجيا الشيوعيةِ ذات التوجه العالمي، والتي تعني كلّ الإنسانية، وبين إيديولوجيا التفوق الآري العرقية الخاصة بألمانيا النازية على تنحية المفهوم. ومع ذلك، كان الحزب الوحيد، في كلتا الحالتين، هو الذي يحوز لوحده الحقائقَ الأنثربولوجية والتاريخية، ويسيطر على جميع الأنشطة الإنسانية، بما في ذلك الحياة الخاصة، بدعم من بوليس جَبّار يَخْضَعُ للحزبِ ويُخْضِعُهُ لسلطانه في الوقت نفسه. لقد أدى نشرُ كتاب حنا أرندت **أصول الشمولية** إلى إبراز هذا المفهوم في سنة 1951[62]. لكن تحديدها للشمولية بدا لي غير كافٍ. وفي وقت متأخر، خلال سنة 1983، في خضم متابعتي لتاريخ الاتحاد السوفياتي بعد الفترة الستالينية، نشرت كتابي **في طبيعة الاتحاد السوفياتي**[63] ابتغاء فهم هذه الظاهرة الفادحة والجديدة بالمقارنة مع أيّ شكل آخر من أشكال الديكتاتورية.

---

62. صدرت ترجمته الفرنسية عن دار Seuil فيما بين 1972 و1982.
(هذان التاريخان غير مفهومين. وما نعلمه هو أن دار Seuil نشرت ترجمة الجزء الثالث من كتاب ح. أرندت في سنة 1972، وتولّت دور نشر فرنسية أخرى نشر ترجمة الجزأين الأول والثاني أو الأجزاء كلها خلال سنوات 1973، 1982 و2002. ثم واصلت دار Seuil نشر ترجمتها الخاصة للجزأين الباقيين خلال سنتي 2005-2006. [المترجم])
63. عن دار Fayard.

وفي القرن الحادي والعشرين، يكتسي فهمُ قدرة الشمولية على استعباد النفوس وتدجينها أهميةً تَعْظُمُ بقدر ما تتشكّل، في الوقت الحالي، جميعُ العناصر الكفيلة بإقامة شموليةٍ جديدةٍ قد استقرَّ نموذجُها الأوّل في الصين العملاقة. وعلى ذلك، من الضروري فهم وجوه الاختلاف والتشابه بينها وبين شمولية الماضي. وسأعود إلى هذا الأمر.

لقد أعاد لي تقريرُ خروتشوف، الذي شجب حُكْمَ ستالين، بعضَ الأمل، لفترة من الزمن، في قيام شيوعيةٍ ليبراليةٍ، لكنّ قمعَ ثورة 1956 المجرية قادني إلى القطيعة النهائية. كانت قطيعةً شاملة، وعلمتني اثنتين من حقائقي.

الأولى: أن تجربةَ فَتْرَتِي الستالينية[64] كانت بالنسبة إليّ حاسمةً في فهم كيفية عمل العقول المتعصّبة وفي نفوري منها ومَقْتِي إيّاها؛

الثانية: أنها جعلتني أدرك أنني، في الأساس، أَيْمَنُ وأَعْسَرُ. أيمن، إذ صِرْتُ منذئذٍ مُصَمِّمًا على عدم التضحية بفكرة الحرية مرةً أخرى. وأعسر، إذ صِرْتُ منذئذٍ مقتنعًا لا بضرورةِ قيامِ ثورةٍ، ولكن بإمكان حصولِ تحوّلٍ.

وأخيرًا، سمح لي فِكاكِي من الأَسْطَرَة بتجديد تصوّري لليسار، والذي يجب في رأيي أن ينهل، على الدوام، من أربعة مصادر مجتمعةً: المصدر التحرري من أجل ازدهار الأفراد، والمصدر الاشتراكي من

64. يشير المؤلف إلى هذه الفترة بكلمة «ستالينيا» (Stalinie)، وكأنها مكانٌ. ويتكرر هذا الأمر في موضع آخر من الكتاب. والمراد ما ذكرنا. [المترجم]

أجل مجتمع أفضل، والمصدر الشيوعي من أجل مجتمع أخوي، ثم المصدر الإيكولوجي من أجل تحسين اندماج الإنساني في الطبيعة، واندماج الطبيعة في الإنساني.

عقد الخمسينيات العجيب

5 مارس/ آذار 1953: موتُ ستالين. يونيو/ حزيران 1953: تمردٌ على النظام الشيوعي في ألمانيا الشرقية. حرب الجزائر، من 1954 إلى 1962. 24 فبراير/ شباط 1956: تقرير خروتشوف الذي يُدين ستالين. يونيو/ حزيران 1956: انتفاضة بوزنان، ثم أكتوبر البولندي الذي أسفرَ عن تحرّرٍ مؤقّتٍ. 23 أكتوبر/ تشرين الأول 1956: قمعُ الثورةِ المجرية بشراسةٍ في نوفمبر/ تشرين الثاني. نهاية أكتوبر/ تشرين الأول 1956: الحرب الإسرائيلية على مصر مدعومة بالتدخل الإنجليزي-الفرنسي في السويس. 13 مايو/ أيار 1958: انقلاب الجزائر. أكتوبر/ تشرين الأول 1958: تولّي دوغول السلطة قانونيًّا، وإلغاء الجمهورية الرابعة مع إعلان الجمهورية الخامسة التي تضم سلطة رئاسية. 1961: فشل الانقلاب الثاني الذي نظمه جنرالات الجزائر ضد دوغول.

أدّت هذه السنوات الثماني من الأحداث غيرِ المرتقبة، لا بل المذهلة (مثل إدانة ستالين من قِبَل خَلَفه وسقوط جمهوريتنا الرابعة)، إلى تأزيم الشيوعية السوفياتية، من جهة، وتأزيم الديمقراطية الناتجة عن التحرير، من جهة أخرى. لقد قامت الثورات العمالية في بولندا والمجر

ضد حزب «الطبقة العاملة»، وقام ما يسمى بالجيش «السوفياتي» بقمعٍ دمويٍّ لمجالسِ السُّوفْيات العمالية في بودابست. لقد شَرَعَتْ هذه الأحداثُ في فضح بهتانِ الاتحاد السوفياتي وزعزعتْ استقرارَ ديانةِ الخلاصِ الأرضي، أعني الشيوعية، وشكّلتْ بوادرَ انهيارها.

لقد قمت، بمعية كلود لوفور وروبر أنتيلم وديونيس ماسكولو، برحلة تضامن إلى بولندا على متن سيارة، وكان البلد قد تحرّر لفترة من الزمن. وتَحَمَّسنا للثورة المجرية، فأنشأنا لجنة لاستقبال المجريين الموجودين في المنفى في فرنسا.

وفي بحر هذه الأحداث، أسّستُ بمعية بعض الأصدقاء مجلة **أرغيمون** التي تولّت مهمة النظر في أزمة الشيوعية وأزمة الديمقراطية، ثم إجراء عملية إعادة تفكير شاملة، مع دمج مشكلات الحياة اليومية والخاصة (الحب). وقد نشرنا في أعدادها كتابات مفكري مدرسة فرانكفورت غير المعروفين في فرنسا مثل تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر. ولقد استعرتُ مفهوم «العصر الكوكبي» من نص لهايدغر نشرته في المجلة، واعتمدتُه للإشارة إلى التاريخ الإنساني منذ غزو الأمريكتين.

علاوة على ذلك، تدخلنا في حرب الجزائر، إذ أسّستُ بمعية ديونيس ماسكولو وروبير أنتيلم ولوي–روني دي فوري لجنةَ المثقفين المناهضين للحرب في شمال إفريقيا، ودافعنا عن شرعية استقلال الجزائر، لكنني كنت شخصيًا أرغب في أن تقيم علاقات مميّزة مع فرنسا. وكنت أجهل الحقائق الجزائرية في مبدأ الأمر، فعلمت أن مصالي الحاج قد أسس

حركة وطنية جزائرية في وقت مبكر يعود إلى سنة 1927، والذي عانى، حتى في ظل الجبهة الشعبية، من صنوف الحظر والاعتقال.

وفي سنة 1954، حدثَ شِقاقٌ بين مصالي الحاج ولجنته المركزية، وأشعلت جماعةٌ من النشطاء الشباب انتفاضةَ عيد جميع القديسين في سنة 1954، وأسّستْ جبهة التحرير القومي ودعت مصالي الحاج إلى الالتحاق بها. ولمَّا رفض ذلك، شنّ حزب جبهة التحرير القومي حربَ إبادةٍ في حق المصالية مع التنديد بمصالي الحاج بوصفه عميلاً لفرنسا وخائنًا للجزائر.

حين كنت في الحزب الشيوعي، التزمت الصمت حِيَال الإبادة المادية والمعنوية الدنيئة التي تعرض لها التروتسكيون. ولم يعد في وسعي أن أبقى صامتًا إزاء حالة مماثلة تسيء إلى أبي الجزائر المستقلة نفسه. لذلك دافعتُ عن شرفِ مصالي الحاج. ثم إنني، بعد انقلاب الجزائر الثاني واغتيال عبان رمضان، أحد مسؤولي جبهة التحرير القومي، من قِبَل حزبه، اتخذت موقفاً يروم إجراء مفاوضات سلام عاجلة ابتغاء الحيلولة دون انغماس كلّ من فرنسا والجزائر في ديكتاتورية عسكرية. ولقد تجنّبتْها فرنسا بفضل عبقرية دوغول السياسية، لكنّ الجزائر لم تستطع مقاومتَها. وبقيتُ زائغًا، غيرَ مفهومٍ، مُهانًا من قِبَل أولئك الذين كادوا يقدّسون جبهة التحرير القومي، ومن قِبَل أنصار الجزائر الفرنسية أيضًا، الأمر الذي عرّضني لمحاولة اغتيال على يد «منظمة الجيش السّري»[65]. وبالمثل، بعدَ بضع سنوات، جَرَّ عَلَيَّ تعاطفي مع

65. ذكرها المؤلف مختصرة بحروف: (OAS). [المترجم]

الشعب الفلسطيني المستعمَر في محنته، ولا يزال يَجُرُّ عَلَيَّ، كثيرًا من سوء الفهم، وضروب الإساءة والسِّعاية.

إن الدرس الذي استخلصته من ذلك هو أنه لا مناص من الرضا بالعزلة والزيغ حين تكون حقيقة الأمور وشرف الإنسان على المِحَكِّ. يجدر بنا عندئذ أن نتعلم كيف نتحمل سوء الفهم، وألا نستسلم للِّعَانِ والهذيانات والأحقاد.

لكنّ الدرس العام المستفاد من عقد الخمسينيات إنما يجب أن يُستخلصَ من الاضطراب الباهر الذي أصاب نظامَيْن كانا يَبْدُوَانِ غيرَ قابليْن للتغيير، وهما نظام الاتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية، من جهة، ونظام الجمهورية الفرنسية الرابعة، من جهة أخرى.

بِطانةُ الثلاثين المجيدة

لقد استمر نمو أوروبا الغربية الاقتصادي، الذي بدأ نحو 1955، إلى غاية أزمة 1973، مشكّلاً ما سمّاه جان فوراستيي بالثلاثين المجيدة.

وبفضل هذا النمو الاقتصادي، ارتفع مستوى المعيشة، لكنّ جودة الحياة انخفضت، وتنامت النزعة الفردية، لكنّ أشكال التضامن تقلّصت، وتقدّمت الحَرَكِيَّات (السيارة، السياحة، العُطل)، لكن القيود التقنية ما برحت تستعبد الناس، وازدادت الرفاهية المادية طردًا مع ازدياد الشعور بالضيق الوجودي (وهذا ما كانت تشعر به أجيال 1968 على نحو غامض)، علاوة على أن هيمنة الاقتصاد المتنامية تسير

جنبًا إلى جنب مع تدهور الشأن السياسي.

وعلى الصعيد الفكري، جاءت البنيويةُ بمنهجٍ منبثقٍ من ألسنيةِ رومان ياكوبسون ابتغاءَ فهم الظواهر الإنسانية، لكن فكرة البنية التي تَسَلْطَنَت، وصارت صاحبةَ الأمر، إنما تُقصي الإنسانَ والذاتَ والتاريخَ.

لقد انبريتُ، بمعية كورنيليوس كاستورياديس وكلود لوفور، لمقاومةِ هذا الفكر الاختزالي والانفصالي. وانكبّ كل واحد منّا على دمجِ فكر ماركس وتجاوزِه في آن واحد. سيكون هذا شأنَ الفكر المعقّد بالنسبة إليّ.

وخلال هذه الفترة، مكنّتني ثقافتي المتنوعةُ للغاية، وفضولي، من كشف ظواهر، غير متوقعة وقتئذٍ، في مراحل نشأتها المبكرة. ومثل ذلك حدث لي بعد ليلة الأمة في سنة 1963، إذ لاحظتُ تشكّلَ ثقافةٍ يافعةٍ مستقلّةٍ، وكانت بمنزلة بواكير مايو/ أيار 1968، وتَنِمُّ عن تمرّدٍ شبابيّ على السلطة وثغرةٍ في واجهة حضارتنا.

وفي بحر هذه السنوات، أدركتُ أن مساوئ الحضارة الغربية قد تنامت، بينما تقلصت آثارها الإيجابية. ومن هنا منشأ «سياسة الحضارة»[66] التي سطّرتها ابتغاء معالجة هذا الأمر، وبسطت مسائلها في كتاب منشور في سنة 1997.

إنني أستخلص من هذه السنوات درسًا مفاده أن التقدم الاقتصادي

66. إدغار موران، *Politique de civilisation*، باريس: Arléa، 1997.

والتقني قد يتضمن تراجعًا سياسيًّا وحضاريًّا، وهو الأمر الذي ما فتِئَ، في نظري، يزداد وضوحًا في القرن الحادي والعشرين.

الوعي الإيكولوجي

انتهت الثلاثون المجيدة بالصدمة النفطية في سنة 1973، والتي نتجت عن الحظر المفروض من قِبَل دول الشرق الأوسط ردًّا على دعم إسرائيل خلال حرب يوم الغفران.

لقد اكتشفتُ، على غِرّة، أن أوروبا لم تعد تلك القوة الاستعمارية والمهيمنة التي لم أكن نصيرًا لها، بل صارت كيانًا هَرِمًا عائلاً يعتمد على النفط فيما يشبه عملية نقل دم حيوية. لذلك آمنتُ ببناء اتحادٍ أوروبي كان في وسعه أن يصبح نموذجًا سلميًا وديمقراطيًا للعالم أجمع – ولم أزل على هذا الحال حتى قادتني خيبات الأمل المتتالية إلى التخلي عن آمالي.

وفي سنة 1972، كان الحدثُ ذو الأهمية الكوكبية الذي لم تُدرك أبعادُه إلا من قِبَل أقلية متفرقة من العقول: أعني نشر تقرير الأستاذ دينيس ميدوز، من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، الذي كشف عن سيرورةِ تدهور المحيط الحيوي الراجعةِ إلى الجَيَشان التقني-الاقتصادي، والراجعِ هو نفسه إلى التعطّش الذي لا مُرْوِيَ له إلى التربّح. ولم يؤثّر هذا التدهور في التنوع البيولوجي النباتي والحيواني فحسب، ولكنه أثّر كذلك في الإنسانية جمعاء، كما يظهر من تلوث

الأنهار، والمحيطات، والمدن، والأراضي المُكرَّسة للزراعة الصناعية، والأغذية المتأتّية من هذه الزراعة، والحيوانات التي تُحبس في حظائر بأعداد كبيرة جدّا وتُغذّى اصطناعيًا. ولمكافحة هذا التدهور العارم الذي طال المحيط الحيوي، كان ينبغي لكل أمة أن تجنح لا إلى سياسة جديدة فحسب، ولكن إلى تفاهمٍ دولي أيضًا.

كنت في جملة من كانوا على درايةٍ بالمشكلة وبالخطر المحدق، وفي سنة 1972 نفسِها ألقيتُ محاضرةً نُشرت وقتئذٍ تحت عنوان «السنة الأولى من العصر الإيكولوجي»، وأتبعتُها بمقالات عديدة.

لم يتقدم الوعي الإيكولوجي إلا بصورة جزئية وببطء شديد، وذلك على الرغم من الكوارث الخطيرة، وبخاصّةٍ في تشيرنوبيل وفوكوشيما، وعلى الرغم من التدهور المستمر للوضع في جميع المجالات، الطبيعية منها والحضارية والإنسانية. ولم أَكُفَّ عن الحضور في هذه الجبهة.

أزمات وحروب

لم أؤمن ببرنامج اليسار المشترك المعتمد خلال سنة 1972، لكنني كنت سعيدًا جدًا بانتخاب فرانسوا ميتران الذي خبرتُ أفضلَ شِيَمه إِبَّانَ المقاومة وأسوأها إِبَّانَ حرب الجزائر.

وتتمثّلُ مَزِيَّةُ رئاستِه في أنه أجرى تناوبًا سياسيًا حِيَال هيمنةِ اليمين وألغى عقوبةَ الإعدام. وخَلاَ وجبةٍ خاصّةٍ دُعيت إليها، لم أكن في جملة أُلاَّفِه، لكنني دافعت عنه حين تعرّض للهجوم في إثر نشر كتاب بيار

بيان[67] الذي يخوض في فترة شبابه، ويكشف للأجيال الحالية عن سيرته الفيشية التي سبقت التحاقه بصفوف المقاومة – وهذا ما كنّا نعلمه جميعًا في سنة 1943.

شهدت الثمانينيات منعطفًا تاريخيًا عالميًا لم يفطن له أحد، ولم يُدرك أمرُه إلا بِالتَّدَرُّج وفي وقت متأخر. إنه منعطف تاتشر (1979-1990) وريغان (1981-1989) النيوليبرالي الذي أبطل كلّ وازعٍ يكبح جماح التربّح، وأدى في كل ربوع العالم إلى خَصْخَصَة الخدمات العامة القومية والزيادة الفاحشة في غنى الأغنياء وفقر الفقراء.

اندلعتِ الحربُ في يوغوسلافيا خلال سنة 1991. وأعلنت كرواتيا والبوسنة والهرسك استقلالهما، ثم تحرّرت كوسوفو من صربيا في 1998-1999 بمعونة الغرب.

لقد وقفتُ ضد التدخل العسكري الصربي في كرواتيا، ولكن من دون الانجرار إلى مناهضة الصرب ومُوالاة الكروات، ذلك لأن قوميةُ التطهيرِ الإثني الكرواتية كانت تشبه إلى حد بعيد نظيرتَها الصربية. وفي المقابل، ساندتُ البوسنة والهرسك متعددة الإثنيات، حيث سيقضي التطرف الحربي، للأَسَف، على التعايش الودي والتنوع الإثني-الديني.

لقد أقنعتني الحرب في يوغوسلافيا بأن تفكّك الإمبراطوريات (العثمانية، النمساوية-المجرية والسوفياتية)، الذي أدى إلى نشأة أمم تضم كلّ واحدة منها أقلّيات إثنية أو دينية، كان من الكوارث التاريخية

---

67. بيار بيان، *Une jeunesse française*، باريس: Fayard، 1994.

التي وسمت القرن العشرين. وبينما تشكّلت الأمم الغربية (فرنسا وإنجلترا وإسبانيا) بدمج شعوب شديدة التنوع عبر تاريخ يمتد لعدة قرون، تأسّست الأمم الجديدة على تصوّر إثني-ديني أحادي يشجع على تصفية الأقليات.

خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى (1987-1991)، أدركتُ إلى أيّ مدى كان الشرق الأوسط منطقة زلزالية حيث تتصادم لا إسرائيل وفلسطين فحسب، ولكن أيضًا الشرق والغرب، واليهودية والمسيحية والإسلام، والمصالح النفطية وحقوق الشعوب، علاوة على تصادم القوى العظمى من خلال القوى المحلية.

وخلال حرْبَيْ العراق (1990-1991 و2003-2011)، والحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990)، والحرب الأهلية السورية الفظيعة (منذ 2011) التي رَعَتها التدخلات الأجنبية، بقيتُ مُتنبِّهًا إلى منطقة زلزالية أخرى تمتد شمالاً إلى غاية أرمينيا وأذربيجان، وجنوبًا إلى إثيوبيا وإريتريا وليبيا.

في كل هذه الصراعات، يوجد رابط لا ينفصم بين الأَهْوَال والأخطاء.

لقد بدأتِ العولمةُ، في الواقع، بإدخال الرأسمالية إلى الاتحاد السوفياتي المنهار، وبما بعد الماوية في عهد دنغ شياوبينغ في الصين، وبتعميم الاتصالات الفورية عبر الهاتف أو الشبكة العنكبوتية بين جميع أنحاء العالم. إنها عبارةٌ عن سيرورةٍ تقنية- اقتصاديةٍ تروم توحيدَ الكوكب.

لكنها أثارت، أيضًا، ردّ فعلٍ يتمثل في التشوّف إلى عولمة بديلة تقوم على ألوان التضامن.

وفي 11 سبتمبر/أيلول 2001، ارتطمتْ طائرتان يقودهما جهاديون إسلاميون ببرجيْ مركز التجارة العالمي في نيويورك. وقد كشف هذا الحدث الضخم، وغير المرتقب على الإطلاق، عن وجه الجهاد للعالم، وهو شكل من أشكال الإرهاب الإسلامي المتعصّب. لكنّ هذا الجهاد إنما أُرْفِدَ وسُلّحَ، في الأصل، من قِبَل الولايات المتحدة في أفغانستان إِبَّانَ مكافحتها للغزو السوفياتي. ومنذئذٍ، صار الجهاد تهديدًا عالميًا سواء بالنسبة إلى البلدان العربية-الإسلامية (معظم الضحايا في العالم من المسلمين) أو بالنسبة إلى العالم الغربي والإفريقي.

وأخيرًا، لقد أصبح وباء كوفيد الشامل، الذي أَثار أزمة كوكبية متعددة الأبعاد، عنصرًا جديدًا من عناصر الهشاشة وعدم اليقين والقلق[68].

---

68. إدغار موران، *Changeons de voie, Les leçons du coronavirus*، باريس: Denoël، 2020.

6

تجاربي السياسية:

المخاطر الجديدة

مُدْرِكًا قُصُورَ معارفنا المُجزّأة عن معالجة المشكلات الكبرى، ومدفوعًا بالرفض النقدي للجوانب الأحادية والاختزالية في أساليب التفكير، ومُلاحِظًا فراغَ الفكرِ السياسي عمومًا، والاشتراكي على وجه الخصوص، ومُقِرًّا بالحاجة، لا إلى مراجعة ماركس وإعادة التفكير في الإنسان والحياة والعالم بواسطة المعارف الجديدة فحسب، ولكن إلى إعادة التفكير في الفكر وإعادة بناء فكر سياسي أيضًا، قُمْتُ برحلة سحيقة عبر المعارف ابتغاء استخلاص مبادئ معرفةٍ وفكرٍ مُعَقَّدَيْن.

علم وسياسة

يثير التطور الباهر الذي عرفته العلوم الفيزيائية والبيولوجية خلال القرنين العشرين والحادي والعشرين مشكلاتٍ أخلاقية وسياسية ما فتِئت تزداد خطورة. وفي الواقع، لم يكن في وسع العلوم، منذ القرن السابع عشر، أن تُنْمِيَ استقلالها إلا باستبعاد كل حكم قيمة، أي كل

حكم إتيقي أو سياسي. لقد عَظُمَ دورها في تاريخ المجتمعات شيئا فشيئا. لقد سمحت ضروبُ التقدم التي حقّقتها الفيزياء النووية باختراع واستخدام وتكاثر الأسلحة النووية. ويَسَّرَ نظيرُها في الفيزياءُ الكَمِّيّةُ تَطَوُّرَ المعلوماتيةِ الجَبَّارَ. وحَرّض نظيرُها في علم الوراثة، والعلوم البيولوجية بصورة أعم، على ألوان التعديل الجيني التي طالت الجنين والإنسان.

والحال أن العلوم لا تعرف أيّ وَازِعٍ إتيقي جوّاني. إن الإتيقا لا يمكن أن تأتي إلا من أخلاقٍ برّانية، علمانية كانت أو دينية. تستولي الدوّلُ على قدرات الأسلحة النووية التي صارت كأنها سيف داموقليس معلّقًا فوق رأس الإنسانية. ويستولي التربّحُ على ساحة علم الوراثة، مُحوِّلاً الباحثين إلى رجال أعمال، بينما يتعرّض البحث الطبي للاحتكار من قِبَل شركات الصيدلة متعددة الجنسيات التي تنصرف إلى إنتاج أدوية مربحة على حساب الأدوية غير المربحة. كل هذه التطورات الخطيرة، التي تفاقمت اليوم بسبب وباء كوفيد الشامل، تضفي طابعًا راهنًا قائمًا على قول رابلي القديم: «العلم بلا ضمير ليس سوى خراب النفس».

مصيرنا المشترك

منذ ألّفتُ كتابي **الأرض-الوطن**، كنت مدركًا لحقيقة أن العولمة التقنية-الاقتصادية قد أشركت بني الإنسان جميعًا في مصيرٍ واحد في ظل الجَيَشانِ الاقتصادي الكوكبي، وتدهورِ المحيط الحيوي، والمخاطرِ

الناجمة عن انتشار الأسلحة النووية. وللأسف، لم يَتَقَيَّض لهذا الوعي أن يَنْمُوَ ويتوسّع.

ثم تحسّنَ بِالتَّدَرُّج تقديري للآثار القبيحة المترتبة عن العولمة التقنية-الاقتصادية (نحو الهاوية؟)، وعن هيمنة نزعة التربّحُ على العالم برمّته، وأزمة الديمقراطيات العالمية، وفشل كل ألوان التمرد تقريبًا على الديكتاتوريات السياسية أو الهيمنات الاقتصادية (وكلّها مترابطة في أكثر الأحيان).

وأخيرًا، إن تَشَكُّلَ أنظمةٍ استبداديةٍ ذاتِ واجهةٍ برلمانيةٍ، في أنحاء العالم كافة، بما في ذلك أوروبا، وبخاصّةٍ الشمولية الجديدة في الصين التي تعتمد على المراقبات الإلكترونية، يُظهِرنا على التراجع الذي شمل العالم بأَسره منذ بدايات القرن الحادي والعشرين.

إن أحد أكبر الدروس التي استفدتُها من تجاربي هو أن عودةَ الهمجيةِ ممكنةٌ دائمًا. لا يوجد مكسبٌ تاريخي لا رجعة عنه.

التفكير المعقّد

إن تجربةَ الأزمةِ الكوكبيةِ العظمى، ذاتِ الأبعادِ المتعددةِ، الناتجةِ عن وباء كوفيد الشامل، تُظهِرنا بوضوح على الحاجة إلى التفكير المعقّد وإلى عملٍ مُدْرِكٍ لتعقيداتِ المغامرة الإنسانية.

لقد نذرتُ خمسين سنة من حياتي لرسمِ معالمِ طريقٍ يمكن أن تُسمّى، في الوقت نفسه، منهجًا (**ميثودوس**، في اليونانية، تعني اتّباع أو البحث

عن طريق) أو تاو (التي تعني في الصينية السبيل أو الطريق). لقد قمتُ بذلك في أجزاء كتاب **المنهج** الستة، وفي الكتب الأربعة المكرّسة لإصلاح التعليم[69] وفي المقترحات السياسة التي احتوى عليها كتاباي **الطريق**[70] **ولنغيّر الطريق**[71].

لكنّ هذه الحاجة لم يستوعبْها ولا تقبّلها معظمُ السياسيين والاقتصاديين والتقنوقراطيين ورواد الأعمال، ولا يزال معظم مُوَاطِنِيَّ يتجاهلونها. لم يسبق أن كانت الرأسمالية بهذه القوة والهيمنة على الإطلاق. لقد دَجَّنَتِ الزّراعةَ التي أصبحت صناعية، ووجّهتِ الاستهلاكَ بواسطة الإشهار، وأَوْبَرَتِ[72] الخدماتِ، وجعلتْ دنيا الإعلامِ والمعلوماتيةِ تحت سيطرة عمالقة الشبكة العنكبوتية. وتهيمنُ الرأسمالية على الصحة عبر شركات الصناعات الصيدلية التي تعاظمت قوتها في زمن الوباء الشامل، وهي تُشَوِّشُ على الحكومات والمؤسسات الأوروبية والدولية عن طريق لوبيّاتها الخاصّة. وكل هذا يجري في ظل السّرنمةَ والعمى.

ماذا نلفي أمامنا يا ترى؟ نلفي ضمائرَ متفرقة، وتمرّداتٍ مقموعة،

---

69. إدغار موران، *La Tête bien faite*، باريس: Seuil، 1999؛ *Relier les connaissances*، باريس: Seuil، 1999؛ *Les Sept Savoirs nécessaires à l'éducation du futur*، باريس: Seuil، 2000؛ *Enseigner à vivre*، باريس: Actes Sud، 2014.
70. إدغار موران، *La Voie*، باريس: Fayard، 2011.
71. إدغار موران، *Changeons de voie*، باريس: Denoël، 2020.
72. تعريب: (ubérisation)؛ وهي مشتقة، في الأصل، من اسم الشَّرِكة الأمريكية (Uber). وتعني «الأَوْبَرَة»، على العموم، تقديم الخدمات بأسعار أقلّ من قِبَل فاعلين مستقلين غير مأجورين عبر منصات رقمية في أكثر الأحيان. [المترجم]

وجمعياتٍ تضامنية، ونزْرًا يسيرًا من الاقتصاد الاجتماعي والتضامني، لكنّنا لا نلفي أيّ قوة سياسية متماسكة بفكرٍ هادٍ مثل الذي أوصي به. إنني أتوقع إمكان الأسوأ، لا بل احتمال حدوثه، لكن الأسوأ ليس مؤكّدًا، وغيرُ المحتمل ممكنٌ أيضًا، شأنه في ذلك شأن ما لا يمكن توقّعه.

لذلك تمكّنتُ، على مرّ الوقت، من إنشاء أفكاري السياسية بِالتَّدَرُّج من حسنٍ إلى أحسنَ متوسِّلاً إلى ذلك بالمعرفة المعقّدة والفكر المعقّد، وهما نَفْسُهُما لا ينفصلان عن صوّر وعيي السياسي، إذ إنّهما يُلْهِمَان هذه الأخيرةَ ويَستلهِمَانِها في الآن نفسه.

ولا أنسى ضرورةَ مراجعةِ فكري، وذلك تَبَعًا للمفاجأة التي يثيرها الحدثُ غيرُ المرتقب أو حتّى بصورةٍ دَوْرِيّةٍ، كمن يقوم بفحص محرّك سيارته كلّ عشرة آلاف كيلومتر.

الإنسيّة المتجدّدة

ومنذئذٍ، أضحتْ كلّ تصوراتي أنثربو-بيو-إيكو-سياسية[73]. إنها لا تنتسبُ إلى الفكر المعقّد فحسب، ولكن أيضًا إلى ما سمّيته بالإنسيّة المتجدّدة، والتي عَرَضْتُها في كتابي **لنغيّر الطريق**. وإنّما قلتُ «المتجدّدة» لأن مونتين قد أوجزها مِنْ قَبْلُ في جملتيْن هما: «أرى في كلّ امرئ ابنَ وطني» و«كلّ امرئ يسمّي ما يغرُب عن عوائده همجيّةً».

---

73. في الأصل: (anthropo-bio-éco-politiques)، أي أنثربولوجية، بيولوجية، إيكولوجية وسياسية في آن واحد. [المترجم]

تنهضُ الإنسيّةُ المتجدّدةُ على الاعتراف بالتعقيد الإنساني. إنّها تعترف للناس كافَّةً بتمام الصفة الإنسانية وبالحقوق الكاملة بصرف النظر عن أصلهم أو جنسهم أو سنّهم. وهي تنهلُ من مَصْدَرَيْ الإتيقا اللذين هما التضامن والمسؤولية. كما أنها تشكّلُ إنسيّةَ الأرض-الوطن الكوكبيةَ (التي تُجَلِّلُ الأوطانَ مع احترامها).

ومنذئذٍ، لن يكون المرء إنسيًّا بمجرّدِ الاعتقادِ أن المخاطرَ وصنوفَ عدمِ اليقينِ والأزماتِ (بما في ذلك أزمة الديمقراطية، وأزمة الفكر السياسي، والأزمة التي تسبّب فيها جَيَشَانُ التربّح، وأزمة المحيط الحيوي، وأخيرًا أزمة الوباءِ الشّاملِ متعدّدة الأبعاد) قد أشركتْنا في مصيرٍ واحدٍ. لن يكون المرء إنسيًّا، منذئذٍ، بمجرّدِ معرفة أننا جميعًا كائنات إنسانية متشابهة ومختلفة، ولن يكون بمجرّدِ الرغبة في الإفلات من الكوارث والتطلع إلى عالم أفضل. أن يكون المرء إنسيًّا يعني، أيضًا، شعورَه في أَعْمَقِ أعماقِ نفسه بأن كُلَّ واحدٍ منّا لحظةٌ عابرةٌ في مغامرةٍ عجيبة، وأقصدُ مغامرةَ الحياة التي تمخّضتْ عن المغامرة الإنسانية، هذه التي انتهتْ، عبر الإبداعات والكُروب والكوارث، إلى أزمة جسيمة حيث أضحى مصيرُ النوع على المِحَكِّ. إن الإنسيّة المتجدّدة إذن ليست هي شعورَ الشِّرْكَةِ الإنسانية، والتضامن الإنساني فحسب، ولكنها أيضًا شعورُ الوجود في قلب هذه المغامرة المجهولة والمذهلة، والرغبة في استمرارها على طريق التحوّل الذي ستنشأ عنه صيرورةٌ جديدة.

إن الأمر الذي ما فتئ يزداد وضوحًا بالنسبة إليّ، على مرّ الوقت، هو أنه في العالم الطبيعي والبيولوجي تقترنُ قوى الارتباط والاتحاد بقوى

التشتّت والدمار.

ويمكن أن يُرْمَزَ إلى هذا الجدل في التاريخ الإنساني بالعلاقة التي لا تنفصم بين إيروس وبوليموس وثاناتوس. ويبدو لي أن ثاناتوس هو الفائز في نهاية المطاف، لكن من الواضح بالنسبة إليّ أن حياتنا، ومهما يكن من أمر، لا يمكن أن تكون ذات معنى إلا من خلال الانحياز إلى إيروس.

7

خطأ الاستهانة بالخطأ

طريقي

عثرتُ على طريقي منذ الثامنة عشرة من عمري، ولم يزلْ دأبي النظر في الأسئلة الكبرى التي صاغها كانط، والتي أشرت إليها مِنْ قَبْلُ: ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا يجب علي أن أفعل؟ وماذا يحق لي أن آمل؟

ولقد كتبَ الفيلسوفُ أن الإجابة عن هذه الأسئلة تتطلّب معرفةَ الإنسان. وأزيدُ على ذلك أنه يجبُ أن تُعْرَفَ، على نحوٍ مُلازِمٍ، الأحوالُ الحسّية والدماغية والروحية التي تكتنف المعرفةَ الإنسانيةَ، وأن تُعْرَفَ الأحوالُ التاريخية والاجتماعية التي تؤثّرُ في كلّ معرفة. ومن هنا منشأ الجزأيْن المركزيّيْن من سلسلة كتب **المنهج**: **معرفة المعرفة** و**الأفكار**.

وفي الواقع، لم أَكُفَّ حتى الآن عن أن أكونَ طالبَ علمٍ، أي الاستمرار في التعلّم والعودة إلى ورشةِ إعادة التفكير. ولَمَّا كانت إعادةُ التفكير مدفوعةً، طبعًا، بالاضطرابات التاريخية، صارتْ هي ديدني منذ **أرغيمون**، مجلة المساءلة، وكتابي **النقد الذاتي**، ثم «دائرة البحث

والتفكير الاجتماعي والسياسي»[74] بمعية كاستورياديس ولوفور، ثم ضمن مجموعة العشرة التي كان ينشّطها جاك روبان، ثم في معهد سولك بكاليفورنيا، ثم في مركز روايومون من أجل علم إنساني، وأخيراً، على نحوٍ متّصلٍ، في تحرير الأجزاء الستة من سلسلة **المنهج** من 1977 إلى 2004. إنني أتوافر على المنهج الكفيل بربط ودمج المعارف، والكفيل طبعًا بفحص الأحوالِ التاريخية ذات الخطورة المتنامية التي نعيشها.

لكنْ خلالَ هذه المغامرة المعرفية، التي لا تنفصل عن مغامرتي في الحياة، أقلقتْ بالي على الدّوامِ مشكلةُ الخطأ والوهم.

أخطائي

أودُّ أن أشير، ابتداءً، إلى أن احتمالَ وقوعِ الخطأ والوهمِ واردٌ على الدوامِ في كلِّ حياة إنسانية وشخصية واجتماعية وتاريخية، وفي كلِّ قرارٍ وكلِّ فعلٍ، لا بل في كلِّ اسْتِنْكافٍ، وأنه يمكن أن يؤدّي إلى كوارث.

لا أستطيع تَعْدَادَ كلِّ أخطائي في التقديرِ أو الحكمِ؛ وإنما سأقتصر هاهنا على ذِكر الخطأيْن الكبيريْن اللّذيْن ارتكبتهما في فترَتَيْ يفاعتي وشبابي، واللّذيْن كانا يبدوان لي وقتئذ حقيقتَيْن كُبْرَيَيْن.

أما أوّلهما، فهو نزعتي السّلمية خلال سني يفاعتي. لقد تأثرت بسلمية الأجيال التي عانت من عبثِ ورعبِ حرب 1914ـ1918،

74. ذكرها المؤلف مختصرة بحروف: (CRESP). [المترجم]

وتأثّرت للغاية، لّما كنتُ في عمر العاشرة أو الثانية عشرة، بثلاثة أفلامٍ سينمائية: **أربعة من الجنود المشاة** للألماني جورج فيلهلم بابست، و**لاَ جديد في الغرب** للأمريكي لويس مايلستون، و**صلبان الخشب** للفرنسي ريمون برنار.

حين طالبتْ ألمانيا الهتلرية بالنمسا ثم ضمّتها، وحين طالبتْ بمنطقةِ السّوديت التشيكوسلوفاكية ثم ضمّتها، وحين طالبتْ بدانزيغ، اعتقدتُ، مثل سيمون فاي، أن هاته الشعوب ألمانيةٌ وترغبُ في الالتحاق بالرايخ، فلا يمكننا من ثم أن نعارض حق الشعوب في تقرير مصيرها. وكنت في عِدَاد من ذهب بهم الظن إلى أن تنازلات ميونيخ كانت خطوة في هذا الاتجاه. وأكثر من ذلك، بدا لي أن هذه التنازلات ستهدِّئ ألمانيا التي ستنضم إلى مجمَع الأمم. واعتقدت أخيرًا، حتى سنة 1939، أنه كان في الوسعِ تجنّبُ الحرب.

كانتْ رؤيتي للأمورِ تحجبُ الظّاهرةَ المركزيةَ: أعني حركةَ التوسّع الضخمةَ التي انبرت لها أمّةٌ تسعى إلى الهيمنةِ، وتستحوذُ عليها الفكرةُ العنصرية التي تجعل من العرقِ الآريّ هو المسيطرَ على أوروبا والمستعمرَ لها، ولا سيما للشعوب السلافية. هاهنا يكمن الاختلاف الأساسي مع حرب 1914 التي نشأتْ عن صنوفِ الصّراعِ بين الإمبرياليات المتنافسة.

إن خطئي راجعٌ إلى أنني توهّمتُ أن التنازلات ستهدِّئ النازية وتُؤَنْسِنُها عن طريق إرضائها، بينما العكس هو ما حصلَ، إذ كانت تلك التنازلات تحثها على المُضِيّ قُدُمًا على الدّوام. لقد نَسِيتُ أو لعلّي أَبَيْتُ

أن أرى أن الأمرَ يتجاوزُ بكثيرٍ القوميةَ الألمانية التقليدية أو التعطّشَ إلى الانتقام، وأنه يتعلق بجموحِ قوّةٍ تحرّكها عقيدةُ التفوّق العرقي، والتي من شأنها أن تقودها من نصرٍ إلى آخر، ومن مذبحةٍ إلى أخرى، حتى الكارثة.

بعد الهزيمة، وقبل الحرب على الاتحاد السوفياتي، تمسّكتُ بفكرة أن ألمانيا، حين تتولّى زعامة أوروبا، ستتجاوز الهتلرية، عاجلاً أم آجلاً، في ظلّ **سلام ألماني** مماثلٍ لما كان عليه **السلام الروماني** (إذ عمدتْ روما، في أعقاب غزوٍ شَرِس، إلى منحِ شعوب الإمبراطورية الجنسية الرومانية بموجب مرسوم كراكلا). وعَنَّ لي أن ألمانيا سَتَتَأَنْسَنُ بِالتَّدَرُّج، وأن النازية ستتلاشى في خضم عودة ألمانيا إلى ثقافتها الإنسيّة والتعددية. لكنْ كان يجب عليّ أن أجعل في حسباني أن هتلر لا يستطيع الامتناع عن مهاجمة الاتحاد السوفياتي، وذلك باسم «المجال الحيوي» الذي تحتاج إليه ألمانيا الآرية.

ومنذئذ، كانت مقاومةُ **الرّمق الأخير**[75] التي أبدتْها موسكو أواخر 1941، ثم بعدها، مباشرةً، بيرل هاربر ودخولُ الولايات المتحدة في الحرب التي أصبحتْ عالمية، باعثًا على ارتكابي لثاني خَطَأَيَّ الكبيرْين.

بينما كانت كلُّ ثقافتي في سني اليفاعة مناهضةً للستالينية بصورةٍ جذرية – إذ قرأتُ بوريس سوفارين وفكتور سيرج، وخَبَرْتُ الاشمئزازَ من محاكمات موسكو والنّفورَ من التعصّب الستاليني –،

75. باللغة اللاتينية في الأصل: (*in extremis*)؛ ولعل المراد ما ذكرنا. [المترجم]

عمدتُ إلى إعادةِ النّظر في مَثَالِبِ الاتحاد السوفياتي بإرجاعها إلى إرث التخلف القيصري والحصار الرأسمالي. ولقد اعتقدتُ أنني استنرتُ بكتاب جورج فريدمان **من روسيا المقدسة إلى الاتحاد السوفياتي**، فاكتشفتُ جوانب إيجابية، على ما كان يظهر، في أمور التعليم والوقاية والصحة والمساواة بين الشعوب السوفياتية. إن الفكرةَ القائلةَ إنه ما عاد ينبغي الحكم على الاتحاد السوفياتي بناءً على ماضيه المَقِيت، بل بناءً على مستقبَلِهِ المُحرِّرِ للإنسانيةِ المقهورةِ، قد حجبتْ عنّي كلَّ ما علّمتني إيّاه ثقافتي في سني اليفاعة. وشيئًا فشيئًا، سلكتُ طريقَ التحوّل نحو الشيوعية. بيد أنني كنتُ محظوظًا لأنني لم أحبسْ نفسي في الحزب، وأصبحتُ مسؤولاً عن حركةِ مُقَاوَمةٍ غيرِ شيوعية.

انهارتْ آمالي في مستقبلٍ مشرقٍ بِالتَّدَرُّج بعد النّصر، في زمنِ الحربِ الباردة والتجلّدِ الستاليني الجديد. لقد حَكَيْتُ قصّةَ تحوّلي وارتدادي بدقّةٍ شديدةٍ في كتابي **النقد الذاتي**، حيثُ العلاجُ الشّافي، وعملُ الضّميرِ الذي جعلني أنفرُ على الدّوامِ من صنوفِ التعصّبِ والتحزّبِ والأكاذيبِ السياسيةِ والحججِ الفاسدةِ التي تتَوَجَّه بالمَطْعَن **نحو شخص الإنسان**[76].

ولذلك، أنا نادمٌ على أخطائي وغيرُ نادمٍ عليها في الوقت نفسه، ذلك لأنّها منحتْني تجربةَ العيش في عالمٍ دينيّ استبداديّ كان له، على غرارِ أيّ دين، قدّيسُوه وشهداؤُه وجلاّدوه. إنّه عالمٌ يُورِثُ الهتْرَ، ويَحُطُّ من قَدْرِ

76. باللغة اللاتينية في الأصل: (*ad hominem*)؛ وكلمة «شخص» زيادة منّا للإيضاح، والمراد ما ذكرنا. [المترجم]

الناس، ويُدَمِّرُ الأفاضلَ أحيانًا. لقد أفادتْني فَتْرَتِي الستالينية، التي استغرقتْ ستّ سنوات، علمًا بقوى الوهم والخطأ والبهتان التاريخي.

من أين يأتي الخطأ؟

منذ الولادةِ، يجري التكيّفُ مع العالم الخارجي عبرَ التَّجارِب والأخطاء، ويستمرُّ الأمر كذلك طَوال الحياة.

لا يمكن بناء المعرفة من دون احتمالِ ارتكاب الخطأ. لكنَ الخطأ يلعب دورًا إيجابيًا حين يتمُّ الوقوفُ عليه وتحليلُه وتجاوزُه. وقد كتب غاستون باشلار قائلاً: «إن الرّوحَ العلميةَ تتشكّلُ من مجموعةٍ من الأخطاء المُصَحَّحَة».

إنّ الأخطاءَ تعلّمُنا حينَ نَفْطِنُ لها، لكنّها لا تُظْهِرُنَا على مصادرِها المتعدّدةِ والدّائمةِ، ولا تُخْبِرُنَا عن دورِها الجسيمِ، والضّارِ في أكثرِ الأحيان.

يستهينُ المرء بالخطأ عادةً، إذ لا يدركُ أنّ مصدرَ الخطأ إنّما يكمنُ في المعرفةِ نفسِها، وأنه خطرٌ يُحدقُ بكلِّ حياةٍ ويطولُ الحياةَ بأسرها.

إنّ الخطأ لا ينفصلُ عن المعرفةِ الإنسانيةِ، ذلك لأن كلَّ معرفةٍ هي عبارةٌ عن ترجمةٍ تتبعُها إعادةُ بناء. والحال أن كلَّ ترجمة، شأنُها في ذلك شأن كلِّ إعادةِ بناء، تنطوي على احتمالِ حدوثِ خطأ؛ بدءًا من المعرفة المتأتّية من الحواس، مثل الإدراك البصري: طائفةٌ من الفوتونات تثيرُ

شبكيّةَ العين التي تقومُ بترجمتها، وفقًا لنظامِ ترميزٍ ثنائي، إلى رسالةٍ ينقلُها العَصَبُ البَصَريُّ، فيُعادُ بناؤها وتحويلُها فورًا إلى إدراكٍ بواسطةِ الدّماغ.

ومع ذلك، يمكنُ أن يكونَ الإدراكُ ناقصًا (قِصَرُ البَصَر، قُصُوُّ البَصَرِ الشَّيخُوخيّ، الصّمم)، ويمكن أن يَتَشَوَّشَ من جرّاءِ زاويةِ الرؤْيةِ والسّهوِ والرّتابةِ، ومن جرّاءِ الانفعالِ على الخصوص. وعلى سبيل المثال، غالبًا ما تكون شهادات الناس، حين تقعُ حادثةُ سيْرٍ، مختلفةً جدًّا، لا بل متضاربة. لذلك، يمكنُ لأفضلِ شُهُودِنا، وهي حواسُّنا، أن تخدعنا أيضًا.

وتُعَدُ الأفكارُ والنظرياتُ إعاداتِ بناءٍ فكريةً قد لا تكونُ خاطئةً فحسب، ولكن مُضلِّلة أيضًا.

والذّاكرةُ مصدرٌ آخر للخطأ، لأنها إعادةُ بناءِ بناءٍ تركَ أثرَهُ في الدّماغ. وما أكثر الأخطاء اللاّإرادية في رواجعِ الماضي والذّكريات!

والاتّصالُ مصدرٌ للخطأ، كما بيّنَ ذلكَ كلود شانون. وبين المرسل والمتلقّي، يمكن أن يتحوَلَ سوءُ الفهم وخللُ الفهم إلى مصدرٍ للنّزاع.

ويمكنُ أن تقودَ القراراتُ الخاطئة، التي تُتخذ في ظلّ صنوفِ عدمِ اليقين ومخاطرِ الحياةِ، إلى أسوأ العواقب.

ومن الواضحِ أن الكذبَ يشكّلُ مصدرًا للخطأ حين يجري تصديقُه. لكن أسوأ ضروبِ الكذب، ذلك الذي لا يمكن أن يجدَ تِرْياقَه إلا في روح النقد الذاتي، هو ما تطلق عليه اللغة الإنجليزية وصف **سيلف**

دسبشن[77]، أي الكذب على النفس: إنَنا مخادعون ومخدوعون. وهذه الظاهرةُ الشائعة تُخفي عن أنفسَنا حقائقَ غيرَ مُسْتَحَبّةٍ، مُخزيةً أو مُحرجةً.

وأخيرًا، يمكن أن تَخْدَعَنَا معلوماتٌ تؤيّدُها شهاداتٌ يُعتقدُ أنّها موثوقة. وكذلك كان الحال في الإشاعة الكاذبة، ولكن المداوِمة، التي أشرتُ إليها مِنْ قَبْلُ، عن فشل الإنزال الألماني في إنجلترا خلال سنة 1941. قيل إن الإنجليز سكبوا البنزين على سواحلهم، وأضرموا فيها النيران عند وصولِ الأسطولِ النّازي الذي هَلَكَ أرواحًا وأمتعةً. ومثل ذلك أيضًا في شائعةِ أورليان، حيث كانتِ المُدرّسات أنفسهن مقتنعاتٍ بأن الفتيات الصغيرات يَخْتَفِينَ في غرف تبديل الملابس داخل المتاجر التي يديرها اليهود.

وعلى نطاقٍ أوسعَ، خُدِعَ ملايينُ الأشخاص من قِبَل دعايةِ الاتحاد السوفياتي التي أخفتْ فظاعةَ نظام معسكرات الاعتقال، وأشادتْ بالفردوس السوفياتي الخيالي. واعتقدَ ملايينُ الأشخاص أن الثّورةَ الثقافية الصينية كانت محطّةً عظمى في مسيرة التقدّم الشيوعي، بينما كانت، في الواقع، مجزرةً مَخْبولةً خلّفت ملايين الضّحايا.

كيف نحمي أنفسنا من المعلومات الكاذبة التي تُسَمَّى الآن **فيك نيوز**[78]؟ لقد أظهرتْ لي التجربةُ أن خطرَ سوء الاستعلام يَعْظُمُ للغاية حين لا تتوافر لا مصادر شتّى ولا آراء مختلفة في شأن الحدث نفسه. إن هاتين التعدّديتيْن هما اللتان تسمحان لنا بتكوين رأيٍ، وفي أكثر الأحيان

77. نقحرة: (*self deception*)، أي «خداع النفس». [المترجم]
78. نقحرة: (*fake news*)، أي «الأخبار الزائفة». [المترجم]

– وليس دائمًا – بتفادي الأخطاء.

يُضَافُ إلى ما تقدّم أن ما يميّز النظريّاتِ العلميّةَ هو قابليتُها للدّحض، وأن ما يميّز الحيويةَ العلمية هو قبولُ تضاربِ النظريّاتِ والأفكارِ. وبعبارةٍ أخرى، إنّ العلمَ لا يقضي على الخطأ، بل إنّما يعترف بإمكانِ حصولِه في كنفه. لا مجال للّوذِ بالحقيقة المطلقة التي تمحقُ كل خطأ، اللهُمَّ إلاّ أن يكون ذلك في دائرة اللاّهوت وإيمان الإنسان المتعصّب.

ومن ناحيةٍ أخرى، أعتقدُ أنه لا ينبغي للمرء أن يكفَّ عن الاستعلامِ وتثقيفِ نفسه والمراجعةِ الدّورية لمعارفه. من المهمّ، في عالم متحوِّلٍ على الدّوام، أن يُرَاجِعَ المرءُ نظرتَه إلى العالم كلَّ عشرِ سنوات. ومن الواضح أن المشكلات التي كانت ذات أولوية قبل سنة 1990 (الحرب الباردة والعالم ثنائي القطب) ليست هي المشكلات نفسها التي ثارت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي (الليبرالية الاقتصادية والعولمة)، ولا هي المشكلات نفسها التي ثارت بعدَ تدميرِ برجيْ مركز التجارة العالمي (الإرهاب الإسلامي). كلُّ واحدٍ من هذه المنعطفاتِ يبدو غيرَ مرتقب: قليلونَ هم الّذين كانوا يَتَنَبَّؤُون بسقوط الاتحاد السوفياتي، ولا أحدَ كان يتنبّأ بأن الانعطاف سيكونُ على يدِ أمين عام الحزب نفسه. وبالمثل، لا أحدَ تنبّأ بأن طائرتيْن انتحاريتين ستضربان في مقتلٍ رمزَ القوّةِ المالية الأمريكية. إن التّاريخ الإنساني يقبلُ الفهمَ، نسبيًا، على نحوٍ بَعْدِيٍّ، لكنّه يظلُّ، على الدّوام، غيرَ قابلٍ للتوقّع بصورةٍ قَبْلِيّة.

إن صعوبةَ مداورةِ التّعقيدات هي أيضًا مصدرٌ للأخطاء. وتزداد

هذه الصعوبة شدّةً بقدر انفصالِ وتجزّؤ معارفنا إلى تخصّصات مغلقة، في حين يرجعُ تعقيد أزمة فيروس كورونا خلال سنة 2020، على سبيل المثال، إلى ألوان التفاعل والارتداد الجارية بين السيرورات البيولوجية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية، إلخ. ومن هنا منشأ الميل إلى اختزال أزمةٍ متعددةِ الأبعاد في أحد مكوناتها، وإلى معاملةِ جزءٍ من الحقيقة معاملةَ الحقيقة الكاملة، هذا بينما كلُّ معرفةٍ تُنْزِلُ الجزءَ منزلةَ الكلِّ هي معرفةٌ خاطئة.

إيكولوجيا الفعل

ينطوي كلُّ قرارٍ على رِهَانٍ حين تنطوي البيئة التي ينبغي أن يَتِمَّ فيها الفعلُ المقرَّرُ على تعقيداتٍ، أي على صنوف عدمِ اليقين أيضًا. ما أكثر القرارات السياسية والعسكرية، أو الفردية لا غير، التي كانت واثقة من النجاح أو الانتصار، لكنّها مُنِيَتْ بألوان الإخفاق والهزيمة أو الكارثة! وما أكثر الأفعال الثورية التي أثارَتْ ثوراتٍ مضادّةً ابتلعتها! وما أكثر المساعي الرّجعية التي أشعلتْ ثوراتٍ أبطلتْها! من هنا منشأ الوعي الضروري الذي يقضي بإنفاذ كلِّ فعلٍ وفقًا لاستراتيجيةٍ قابلة للتعديل تبعًا للعوارض أو المعلومات الجديدة. وهذا ما قام به، على نحوٍ يُضرب به المثل، الجنرالُ الشابُّ بونابرت خلال الحملة الإيطالية الأولى، أو نابليون خلال معركة أوسترليتز.

أمراضُ العقلانيةِ

نعتقدُ بحقّ أن الاتّفاقَ بين العقلِ – القائمِ على الاستنباط والاستقراء – وبين المعطيات الحسّية المتّصلة بالعالم الخارجي يُنتجُ معرفةً وجيهة.

غَيْرَ أَنَّ النظريةَ العقلانيةَ تنزعُ إلى الانغلاق العقدي حين تتجاهلُ المعطياتِ الجديدةَ التي تدحضها، وتنبذُ من دون فحصٍ الحججَ المعارضةَ. إن الوثوقيةَ مرضٌ يُحجِّرُ العقلَ، هذا الذي ينبغي له أن يكون، على الدوام، منفتحًا على قابليةِ دحضٍ محتملةٍ.

وينطوي العقلُ أيضًا على خطرِ العَقْلَنَة، وهي بناءٌ منطقيٌّ، لكنَّ أَسَاسَ هذا البناء مقدماتٌ باطلةٌ. وعلى هذا النّحوِ، إذا كنتُ مقتنعاً بأن جاري يتجسّس عليّ، فسأفسِّرُ كلَّ تصرّفاته بأنّها أَدِلَّةٌ على تجسُّسه.

العمى البارادايمي

إنّ عقلانيّتَنا، كما أوضحتُ ذلك في الجزء الثالث من كتاب **المنهج**[79]، تسترشدُ، بصورةٍ لاواعيّةٍ، بِبارادايمٍ يتحكّمُ في تنظيمِ المعرفة ويفرضُ الفصلَ والاختزالَ أسلوبيْن في معرفة المجاميع والظواهر المعقّدة. ومن شأن هذا الأمر الواقع أن يُشيع العمى في صميمِ أسلوبنا في المعرفة.

الفصل: إذا كانت الظواهرُ تترابطُ فيما بينها عبر ألوان التفاعلِ والارتدادِ التي لا حصرَ لها، فإنّ تَجْزِيء المعارفِ إلى تخصّصاتٍ مغلقةٍ يحُولُ دون رؤية تلك الروابط. لا يمكن فصلُ معرفةِ كائنٍ حيٍّ عن

79. يريد كتاب *La Connaissance de la connaissance*، باريس: Seuil، 1986. [المترجم]

سياقه، ذلك لأن كلّ كائنٍ حيٍّ يعتمد على بيئته التي يجب عليه، من أجل العيش، أن يستمد منها الطّاقةَ والمعلومةَ.

يجب أن يُعْلَمَ، بصورةٍ أعمّ، أن حَجْبَ التعقيدات، أي العلاقات التي لا تنفصمُ بين مكوناتٍ مختلفةٍ تَهُمُّ تخصّصاتٍ مجزّأة، إنّما يؤدّي إلى الخطأ.

الاختزال: تُردُّ معرفةُ الكلِّ إلى معرفةِ العناصر المكوّنةِ له. والحال أن كلَّ انتظامٍ لعناصرَ شتّى في كُلٍّ ما يُنْتِجُ صفاتٍ لا توجد في هذه العناصر بصورةٍ منفصلة: إنها التّولدات[80]. وعلى هذا النحو، يُنْتِجُ تنظيمُ الكائنِ الحيّ المعقّدُ صفاتٍ غيرَ معروفةٍ للجزيئات التي يتكوّنُ منها: التّوالد الذاتي، الإصلاح الذاتي، التّغذية، النشاط المعرفي، وغير ذلك. إن هذه الصفات لا تَقبلُ لا للاستقراء ولا للاستنباط من العناصر المعتبرةِ على انفرادٍ. إن منطقَ التّنظيم يفلت من المنطق التقليدي.

يجب، أيضًا، أن نعلَمَ طائفة من الأسباب الأخرى المؤدّية إلى العمى:

– طابعُ المشكلةِ المُسْتَجَدُّ، أو نسيانُ تجربةٍ سابقةٍ مماثلةٍ، أو القِياسُ غيرُ المناسب؛

– اعتياصُ المشكلةِ على الكشفِ انطلاقًا من الأفكار الجاهزة التي يُعتقد أنها واضحةٌ لا مُشَاحّةَ فيها أو انطلاقًا من تطوّرها البطيء أو المعرّضِ للتقلّبات؛

---

80. أو «الانبثاقات» (émergences). [المترجم]

– الفشلُ في إيجادِ الحلّ الناجمُ عن حدودِ المعارفِ أو الوسائلِ التكنولوجية، أو الناجمُ عن التّدخلِ المحدودِ للغاية أو المتأخِّرِ جدًّا؛

– التصرّفُ القائمُ على المصالحِ الخاصّةِ التي تَطْمِسُ المصلحةَ العامّة.

معرفة وجيهة

هل يُمكنني أن أستخلصَ بعض المبادئ التي ينبغي جعلُها في الحُسْبانِ بوصفها أَدِلَّةً مرشدةً أيضًا؟

تمهيد: القدرةُ على الدّهشة والتّساؤل حِيَال ما يبدو طبيعيًّا وواضحًا لا مُشَاحّةَ فيه. وبعبارة أخرى: الاستشكال. إن ازدهارَ العلومِ والفلسفةِ والفكرِ خلال عصرِ النّهضة قد تحقّقَ عن طريق الاستشكالِ: ما العالمُ؟ ما الحياة؟ ما الإنسان؟ ما الإله؟ هل يُوجد إلهٌ؟ إن الاستشكالَ يُوَلِّدُ الشّكَّ، والشّكُّ مطهّرٌ حَقِيقِيٌّ للرّوح من السّموم، لكن يجبُ أن يعرفَ أيضًا كيف يشكُّ في الشّكِّ نفسه. إن الشّكَّ يُوَلِّدُ التّفكيرَ النّقدي، ولا يكون التّفكيرُ نقديًّا إلا إذا كان ناقدًا لذاته أيضًا.

الأمرُ[81] الأوّل: أن يُدرجَ كلُّ موضوعٍ من موضوعات المعرفةِ في سياقِه. لا يمكن فهمُ ظاهرةٍ ما، أو فعلٍ ما، فهمًا صحيحًا إلا في سياقَيْهما. إن كلمةً ما مُتَعَدِّدَةَ المَعَانِي لا تكتسب معناها إلا في الجملة، كما أن الجملة لا تكتسب معناها إلا في النّص. وكلّ كائنٍ حيٍّ إنّما يتعهَّدُ

81. ترجمة: (impératif)؛ والمراد هاهنا شعور الواجب الذي يحمل على فعل ما. [المترجم]

استقلالَه باستمدادِ الطاقةِ والمعلومةِ من سياقه الإيكولوجي والاجتماعي، ولا يمكن النظر إليه منعزلاً.

الأمرُ الثاني، وهو أعمّ: الاعترافُ بالتّعقيد. أعني الوجوهَ متعدّدةَ الأبعادِ، وأحيانًا المتضاربة أو المتناقضة، التي يكتسيها الأفرادُ والأحداثُ والظواهرُ.

الأمر الثالث، وهو أعمّ أيضًا: القدرةُ على تمييزِ ما هو مستقلّ أو أصليّ، والقدرةُ على إعادةِ وصلِ الموصولِ أو المتساوقِ. ويجبُ أن يشتملَ مسارُ التعليم برمّته، بدءًا من المدرسة الابتدائية، على هذه التّهيئةَ للحياة التي هي حركةُ أخذٍ وردٍّ لا تنقطعُ بين الخطأ والحقيقة[82].

كلُّ حياةٍ هي مغامرةٌ محفوفةٌ بعدمِ اليقين. يمكنُ أن نُخْطِئَ في اختياراتنا: على صعيدِ الصّداقات، كما على الصُّعُدِ الغرامية والمهنية والطبّية والسياسّية. إن شبحَ الخطأ يلاحقنا خطوةً بخطوة.

قد تترتّبَ عن حكمٍ خاطئ أو قرارٍ خاطئ يُصدرهُ رَئِيسُ أمّةٍ عواقبُ كارثيّةٌ وقاتلةٌ للبلد برمّته.

يتحصّلُ من ذلك أن المعرفة فنٌّ صعبٌ، وأنه يمكنُ أن يُسَنَدَ بمعرفةِ مصادرِ الخطأ والوهم، إلى جانب المراجعة الذَاتية والنقد الذَاتي.

عقيدة

82. انظر كتابي: *Pour entrer dans le XXIe siècle*، باريس: Seuil، 2004.

يَغمُرني حبُّ الحياة أحيانًا. يا لَلْجمالِ، يا لَلانسجامِ، يا لَلْوحدةِ العميقةِ، يا لَتكاملِ ويا لتضامنِ الأحياء! ليتَ شِعْري أيّ قوة خلاقةٍ هذه التي أبدعتْ ما لا يُحصى من الأنواع الحيوانية والنباتية الفريدة! لكن في أحيان أخرى يَغمُرني الشّعورُ بقساوةِ الحياةِ، وبواقعِ الحاجةِ إلى القتل من أجل العيش، وبطاقةِ الحياةِ المُدَمِّرة، وبصراعاتِها، مع انتصارِ الموتِ الدائم. ثم إنّني نجحتُ في الجمعِ بين الحقيقتيْن المتناقضتيْن، واستبقائهما وربطهما على نحوٍ لا ينفصم. إنّ الحياةَ هَدِيَّةٌ وحِمْلٌ ثقيل، إنّ الحياةَ رائعةٌ ومفزعة.

كذلك الحالُ في الكونِ كما نعرفه اليوم. يبدو من زاوية نظرنا متناسقًا تمام التناسق، وسَرْمَدِيًّا على ما يظهر. لكنّه بالنسبة إلى عِلْمِنا تمدّدٌ، وفوضى، ونجومٌ تنفجر أو تتصادم، وأجرامٌ تبتلعها ثقوبٌ سود مدهشةٌ لا تُحصى، وفي الأخير دمارٌ واضمحلالٌ لا رجعة فيهما. ربّما كانتِ الحياةُ، في هذا الكونِ، ظاهرةً فريدةً – في كوكبٍ صغير يدور حوالي شمسٍ تقع في ضاحية المجرة[83] –، وهي هامشيّةٌ على كُلّ حال.

وبالطَبع، تبدو لي هذه التناقضات نفسها ملازمةً لتاريخ الإنسانية، ولكلّ التواريخ التي تشكّلها الحيوات الفردية. فَيْضٌ من الطِّيبَةِ والكرمِ والتّفاني، وفَيْضٌ من الشّرّ والخِسَّة والأنانية. فَيْضٌ من الذكاءِ والأَرَبِ والنّبوغِ الخلاّق، وفَيْضٌ من البلاهةِ والعمى والأوهامِ والأخطاء. يا

83. في الأصل: (dans une petite planète d'un soleil de banlieue)؛ وهي عبارة ملتبسة. ولم نقتنع بترجمة من قبيل «في كوكبٍ صغير تشبه شمسُه شمسَ الضاحية». ولعل المراد ما ذكرنا، بتصرّف يسير. ومعلومٌ أن الفلكيين يتحدثون عن الشمس، عادةً، بوصفها إحدى نجوم «ضاحية» مجرة «درب اللبانة»، أي هامشها. [المترجم]

لروعةِ ويا لهولِ قوّةِ الخيال في الرّوح الإنسانية التي تصنعُ روائعَ الشِّعر والآداب والفنون، ثم تُسلِم نفسَها للرِّقّ بعبادةِ واستجداء الآلهة والأساطير التي صنعتْها.

هذا الوجهُ المزدوج والمتعدّد، وهذا التّعقيد الذي يَطُولُ كلَّ شيء، من الجُسيم، وهو أيضًا عبارة عن موجةٍ، إلى النفس الإنسانية، التي لا تنفصل عن ألوانِ التّفاعل بين مليارات الخلايا العصبية، قلت: هذا الوجه، وهذا التّعقيد، هو ما يوجد دائمًا في ذهني، ولا يبرحه طرفة عين. وهذا هو الدّرس الأول الذي استخلصته من كلّ تجاربي.

لمّا بلغتُ الثالثةَ عشرة من عمري، انكشفَ لي أمران متناقضان وَسَمَاني مدى الحياة: الشّك والإيمان. حين قرأت رواية **جريمة سيلفستر بونار** لأناتول فرانس، غشِيَتني «الارتيابية الباسِمة» (كما كان يقال عن هذا المؤلف) بوصفها حقيقتي. وحين قرأت رواية **الجريمة والعقاب** لدوستويفسكي، اكتشفتُ الصّراعَ والتّكاملَ بين الإيمان والشك. كما هو الشأن عند باسكال، على الرغم من أن إيماني لم يكن موضوعُه الإله أبدًا، بل الأخوة الإنسانية.

تلقّيتُ من دوستويفسكي، على الخصوص، رسائلَ التّعاطفِ والتّعقيدِ الإنسانييْن. ولم يَفُتْنِي التّعاطفُ مع البسطاء والمُهانين والمقهورين أبدًا. وهو اليوم شديدٌ أكثر من أي وقت مضى، إذ يتعرّض كثيرٌ من الناس للإهانة بسبب أصلهم أو لون بشرتهم. لقد أظهرني عمقُ شخصّياته من الإناث (ناستاسيا فيليبوفنا في رواية **الأبله**، وغروشنكا في رواية **الإخوة كارامزوف**)، أو الذكور (ستافروغين في

رواية **الشياطين**)، على تعقيداتِ النّفس الإنسانية.

لقد صِرْتُ مدركًا لكونيةِ هذا التّعقيد بفضل هيغل الذي يرى، على الإجمال، أنّنا إذا عاملنا من ارتكب جريمةً بوصفه مجرمًا، فإنّنا سنُقصي كلَّ جوانبِ شخصيتِه وأفعالِه وحياتِه. وأنا أيضًا أؤمن بإمكان خلاص القاتل. وكنت أعرفُ خلاصَ السّجين الذي ارتبطت به[84].

بعد هذه القراءات الأولى، عمّق مونتين من نزعتي الارتيابية وشجّعني على المراجعة الذَاتية، وبعده فولتير وروسو، المتكاملان في تعارضهما، وكذلك الأنوار والرومانسية، والعقلانية والسِّرَّانِيّة (الخالية من الإله)، والمرئي وغير المرئي. بفضل هذه القراءات، اكتسبت إحساسًا عميقًا بالوجوه المزدوجة والمتعدّدة التي تَسِمُ الكائناتِ الإنسانيةَ، وتواريخَهم الفريدة، والتّاريخَ العظيم الذي يحملنا جميعًا.

يحمل كلُّ امرئ في ذاته الأمرَ[85] المزدوجَ المتكامل المتّصل بالأنا والنّحن، والنزعة الفردية والنزعة الجماعية، والأنانية والإيثار.

لقد ترسّخ إدراكي لهذا الأمرِ المزدوجِ في أعماق نفسي على مرّ السنين. وكان يحثني دائمًا على رعاية وتقويةِ القدرة على الحب والافتتان، وعلى المقاومة العنيدة لقساوة العالم في الوقت نفسه.

وأخيرًا، أرى أن إدراك التعقيد الإنساني يؤدّي إلى الأريَحِيّةِ. تسمح الأريَحِيّةُ بالنظر إلى الغير لا من جهة عيوبه ونقائصه فحسب، ولكن من

---

84. الظاهر أنه يقصد دوستويفسكي. ونشير إلى أنّنا ترجمنا (rédemption) هاهنا بكلمة «خلاص» مراعاة للسياق؛ أما ترجمتها الحرفية، فهي «الفداء». [المترجم]

85. ترجمة: (impératif)؛ وقد علّقنا عليها في هامش سابق. [المترجم]

جهة مزاياه أيضًا، سواء تعلق الأمر بنواياه أو بأفعاله.

هل أنا إنسانٌ طَيِّب؟ أعلمُ أنني إنسانٌ لَيِّنُ الجانب، لا شرّير ولا حقود. ولستُ عدوانيًّا.

أحبُّ سجالَ الأفكار، لكنّني أمقتُ الهجماتِ الموجّهةَ **نحو شخص** الإنسان. أدركُ جيّدًا مُتَعَ الانتقام، إذ قرأتُ **كونت مونتي-كريستو**[86]، وشاهدتُ كثيرًا من أفلام الوسترن. لكنّني لم أسْعَ في حياتي إلى الانتقامِ أبدًا.

لا شكّ في أن طبعي الظّريف وافتقاري إلى إرادة القوة حالانِ مناسبانِ لسيرة الأريَحِيّةِ.

ومع ذلك، شعرتُ شعورًا قويًّا، منذ الطفولة، وإلى غاية الآن، بالحاجة إلى الاعتراف؛ إنّني أودُّ لو تُعرف أعمالي من حيث إسهاماتها ومزاياها. لمّا وُجِدَتْ هذه الأعمال زائغةً، منذ البداية (ولا يزال الحال كذلك بالنسبة إلى تصوّري للمعرفة)، كان لا مناص لي من التعرّض لسوء الفهم والازدراء والسّخرية.

يعاني الكتّابُ والفلاسفةُ والجامعيون من عقدةِ اعترافٍ فاحشةٍ. يرغبُ كلُّ واحدٍ منهم في أن يُعترفَ له بأنه نابغةٌ أو، على الأقَل، بأنه أفضلُ أقرانه. وكلُّ كتابٍ يصدرُه أحدُهم يُعامله كما يُعامِل المرءُ ولدَه العزيزَ، إذ يتوقّع له مصيرًا مجيدًا ينعكس على مؤلِّفِه.

---

86. عنوان رواية كتبها ألكسندر دوما بالاشتراك مع أوغست ماكي. [المترجم]

من هنا منشأ ألوانِ العَجْرَفة والغرور والازدراء والخَباثَة، وأحياناً السِّعاية في حقِّ من يُرى أنهم منافسون، أو أعداء في أسوأ الأحوال. عندما دمجتُ في كتاباتي، باسم التّعقيد، معارفَ مُستمدّةً من العلوم الفيزيائية أو البيولوجية، أثرتُ ردَّ فعلِ المالك الذي أخرج بندقيته لمواجهة الصَيَّاد المُخَالِف الذي أتى لسرقة ممتلكاته.

أريدُ أن أضيفَ أنّ كل ما فعلتُه من الأشياء الحسنة قد أُسِيءَ فهمُه والحكمُ عليه في مبدأ الأمر. ومع ذلك، لم أرغبْ، ولا أنا حاولتُ، أن أكونَ شاردًا أو متمرّدًا. لكنَّ استقلالَ العقل يقودُ، عن غيرِ قصدٍ، إلى الزّيغ. وعلينا أن نقبلَ سوء الفهمِ والنِّقْمَةَ.

أخيرًا، يَحسُن بنا أن نكون طيّبين، وخيرٌ لنا أن نكون من أهل الخير، ويسمحُ حسُّ التعقيدِ بإدراك الجوانب المتباينة والمتناقضة التي تَسِمُ الكائنات والملابسات والأحداث، وهذا الإدراك يعزّز الأريَحِيّةَ. ويتمثلُ درسي النهائي، الذي هو الثمرة المشتركة بين جميع تجاربي، في هذه الدائرة الحميدة حيث يتعاون العقلُ المنفتح والأريحيةُ المفعمةُ حبًّا.

مذكّرات

العيش في ظل عدم اليقين

العيشُ ملاحةٌ في بحر من عدم اليقين، ومن بضعِ جزر من اليقين نتزوّد بالمؤن.

اِرْتَقِبْ ما لا يُرتقب.

التّاريخُ الإنساني يقبلُ الفهمَ، نسبيًا، على نحوٍ بَعْدِيٍّ، لكنّه يظلُّ، على الدّوام، غيرَ قابلٍ للتوقّع بصورةٍ قَبْلِيّة.

لا يوجد مكسبٌ تاريخي لا رجعة عنه.

ليس الإنسانُ لا صالحًا ولا طالحًا، ولكنه معقّد ومتقلّب.

حين يلتهمُنا المُبَاشِرُ[87]، ينحرف العقل.

القضاءُ التّام على الخطر يؤدي إلى القضاء التّام على الحياة.

لا يكون مبدأ الحِيطَة ذا معنى إلا إذا اقترن بمبدأ المخاطرة الضروريّ للعمل والابتكار.

الطّريقُ نحو المستقبل تمُرُّ عبر العودة إلى الينابيع.

---

87. ترجمة: (immédiat)؛ وتترجم أيضا «آني»، «فوري»، «حاضر»، إلخ. والضمير زيادة منّا للإيضاح. [المترجم]

الرّجاءُ هو انتظار ما لا يُرتجى.

حفظ الصحة العقلية

الذين لا يعرفون الضّغينة يَنْجُونَ من صنوف الخَبَل.

الدّحضُ يكون بالمُحاجَّة لا بالتنديد.

التّعقيدُ الذي يسائل كلّ شيء أفضلُ من المذهب الذي يجيب عن كلّ شيء.

لكي يَنْعَمَ المرءُ بشيخوخةٍ طيّبة، عليه أن يحافظ على فضول الطفولة، وتطلعات اليفاعة، ومسؤوليات الكهولة، وأن يحاول، خلال شيخوخته، استخلاص تجربة الأعمار السابقة.

لن أكُفَّ أبدًا عن ملاحظة ما هو قاسٍ وعنيد وعديم الرحمة في الإنسانية، ولا عن ملاحظة ما هو مفزعٌ في الحياة، ولا أنا كافٌّ بالمثل عن ملاحظة ما هو نبيل وكريم وطيّب في الإنسانية، وما تشتمل عليه الحياة من أمور فاتنة ومدهشة.

غالبًا ما نُضطر إلى مواجهة التناقض الإتيقي الآتي: احترام كلِّ شخص إنساني وعدم الإساءة إليه في ما هو مقدّس بالنّسبة إليه، وفي الوقت نفسه ممارسة الروح النقدية التي يحرّكها عدم احترام المعتقدات المفروضة بوصفها معتقداتٍ مقدّسةً.

النّقدُ الذاتي وقايةٌ نفسيّة جوهريّة.

يجدر بنا ألاّ نكون واقعيّين بالمعنى المبتذل (التكيّف مع المباشر)، أو غيرَ واقعيّين بالمعنى المبتذل أيضًا (التملّص من قيود الواقع)، وإنما يجدر بنا أن نكون واقعيّين بالمعنى المعقّد: أعني أن ندركَ عدمَ اليقينِ الذي يكتنف الواقع، وأن نعلمَ أنه لا يزال ثمة ممكنٌ غير مرئيّ.

الفنُّ الذي ينسبُ إلى الغير كلماتٍ لم يقلْها، وأفكارًا لم تخطر على باله قَطُّ، وينتقص مِنْ قَدْرِ شخصِه بأَخَسِّ الطرائق، قلت: هذا الفنّ قد بلغَ ذُراه.

إنني أنتقدُ أفكارًا، ولا أهاجمُ الأشخاصَ أبدًا. وسيكون أمرًا مُهينًا لي أن أنتقصَ من قدرهم.

فرنسا واحدةٌ ومتعددةُ الثقافات في الوقت نفسه. وخلال تاريخها، جمعتْ بين شعوب متنوعة للغاية، من بروتانيين وألزاسيين، إلخ، ثم أحفاد المهاجرين. إن وحدتَها تحتضنُ تعدّدًا ثقافيًّا. وهذان المفهومان، المتعارضان بالنسبة إلى العقول العُور، إنّما يكمّلان بعضهما بعضًا.

التعايش مع الأزمة

ينبغي إيجادُ لقاحٍ ضدّ داء الكَلَب الإنساني تحديدًا، ذلك لأنّنا في خضمٍّ وباء.

أزمةُ كوفيد هي، نوعًا ما، أزمةُ تصورٍ للحداثة يقوم على فكرة أن مصير الإنسانِ هو أن يسيطرَ على الطّبيعةِ ويصبحَ سيّدَ العالم.

يُذَكِّرُنا كوفيد بأنّنا نعيش مغامرةً، مغامرةً في المجهولِ، مغامرةَ النوّعِ

الإنسانيّ المذهلةَ.

سرّ

الحقيقةَ تتخفّى وراء حقائقنا.

العقلُ الإنسانيّ أمام بابِ السّرِ المُوصَد.

شكر

لقد ألّفتُ هذا الكتابَ بناء على اقتراح من صباح أبو السلام، شريكة حياتي ومُلهمتي، ودوروثي كونيو، ناشرة كتابي **لنغيّر الطريق** ومرافقته في الوقت نفسه. كلتاهما دَعَمَتا كتابةَ هذه **الدّروس** عبر مناقشةِ النص ومراجعته وتصحيحه.



قائمة بمعظم المصطلحات وأسماء الأعلام والأماكن المذكورة في الكتاب مع مقابلاتها (ترتيب هجائي عربي)

(أ)

أبو السلام، صباح	Sabah Abouessalam
أبيناكي	Abénaquis
إتيقا	Éthique
أحادية	Unilatéralisme
اختزال	Réduction
إدفيج	Edwige
أدورنو، تيودور	Theodor Adorno
ارتداد	Rétroaction
ارتيابية	Scepticisme
آردن	Ardennes
الأرض-الوطن	Terre-Patrie
أرغيمون، مجلة	*Arguments*
أرندت، حنا	Hannah Arendt
آرون، ريمون	Raymond Aron
آري	Aryen
أريَحِيّة	Bienveillance
آريل، جوان	Johanne Harrelle
استحالة الضغط الخوارزمي	Incompressibilité algorithmique
استشكال	Problématisation

أسْطَرَة	Mythification
أسطورة ؛ ميثة	Mythe
آشبي، وليم روس	William Ross Ashby
إصلاح ذاتي	Autoréparation
أفرو-أمريكي	Afro-américain
اقتصادوقراطي	Econocrate
ألانيس	Alanys
ألزاس	Alsace
ألفيّة	Millénarisme
أمر	Impératif
أناركي	Anarchiste
أنتيلم، روبر	Robert Antelme
إنسان إدغاري	Homo edgarus
إنسان عاقل مجنون	Homo sapiens demens
إنسانيّة	Humanité
أنسنة	Humanisation
إنسيّة	Humanisme
أوْبَرَة	Ubérisation
أوسترليتز، معركة	Austerlitz
أوسمان، شارع	Haussmann
أوغسطينوس، القديس	Augustin
أوْمَنَة	Hominisation
إيثار	Altruisme
أيدَنة	Manualisation
إيرفي، بيار	Pierre Hervé
إيروس	Éros
إيرين	Irene
إيزابيلا الكاثوليكيّة	Isabelle la Catholique
إيستوود، كلينت	Clint Eastwood
إيكولوجيا	Ecologie
إيكولوجيا الفعل	Ecologie de l'action
إيلوار، بول	Paul Éluard

إيليتش، إيفان	Ivan Illich

(ب)

بابست، جورج فيلهلم	Georg Wilhelm Pabst
باخ، يوهان سباستيان	Jean-Sébastien Bach
بادن-بادن	Baden-Baden
بار متسفا. طقس البلوغ	Bar-mitsva
باردايم	Paradigme
باسكال، بليز	Blaise Pascal
باشلار، غاستون	Gaston Bachelard
باطاي، جورج	Georges Bataille
براحيا، الحاخام	Rabbin Perahia
برنار، ريمون	Raymond Bernard
بروتانيا	Bretagne
بسيكاري، إرنست	Ernest Psichari
بَعْدِيّ	A posteriori
بلان، السيدة	Mme Blanc
بلان-دي-بالي، شارع	Plan-du-Palais
البلور، ليلة	Nuit de cristal
بلوزيفيت	Plozévet
بنية	Structure
بنيوية	Structuralisme
بوبر، مارتن	Martin Buber
بوبر-نيومان، مارغريت	Margarete Buber-Neumann
بوتي سان-بونوا، مطعم	Petit Saint-Benoît
بورغيار، أندري	André Burguiere
بورغيار، إيفلين	Évelyne Burguiere
بوزنان	Poznań
بوشان، جورج	Georges Beauchamp
بوفين، معركة	Bouvines
بولس، القديس	Paul

بولك، لوي	Louis Bolk
بوليموس	Polémos
بومي	Poumiste
بون، غابي	Gaby Bounes
بونابرت، نابليون	Napoléon Bonaparte
بونسي، غاستون	Gaston Poncet
بوينو، خافيير	Xavier Bueno
بيان، بيار	Pierre Péan
بيتان، فيليب	Philippe Pétain
بيتانية-دوغولية	Pétaino-Gaullisme
بيتسن، غريغوري	Gregory Bateson
بيتهوفن، لودفيغ فان	Ludwig van Beethoven
بيرجري، غاستون	Gaston Bergery
بيرغوليو، خورخي ماريو	Jorge Mario Bergoglio
بيرل هاربر	Pearl Harbor
بيريسترويكا	Perestroïka
بيريسي، سالومون	Salomon Beressi
بيريغور	Périgord
بيغال، حي	Pigalle
بيغي، شارل	Charles Péguy
بيفو، شارع	Buffault
بيندا، جوليان	Julien Benda
بيوفيزيائي	Biophysique
بي نيكلي، سلسلة	*Pieds Nickelés*

(ت)

تابو، نادي	Tabou
تبسيطية	Simplisme
تربّح	Profit
تروبادوري	Troubadour
تروتسكية	Trotskisme
تسيبراس، ألكسيس	Aléxis Tsípras

تشايتن، غريغوري	Gregory Chaitin
تشيرنوبيل	Tchernobyl
تعقيد	Complexité
تفاعل	Interaction
تقنوقراطي	Technocrate
توالد ذاتي	Autoreproduction
توسكانا	Toscane
تولستوي، ليون	Léon Tolstoï

(ث)

ثاناتوس	Thanatos
الثلاثون المجيدة	Trente Glorieuses

(ج)

جاك، الإخوان	Frères Jacques
جانكليفيتش، فلاديمير	Vladimir Jankélévitch
جدانوف، أندري	Andreï Jdanov
جماعية	Communautarisme
جوبلين، جانيس	Janis Joplin
جورج، بيار	Pierre George
جوكوف، غيورغي	Gueorgui Joukov
جيديو	Djidio
جيلو، فرانسواز	Françoise Gilot

(ح)

حالة شعرية	Etat poétique
حفظ الصحة؛ وقَاية	Hygiène

(خ)

خروتشوف، نيكيتا	Nikita Khrouchtchev
خطأ	Erreur
خطر	Risque; Péril
خلاص	Rédemption; Salut

(د)

دارك، جان	Jeanne d'Arc
دارنان، جوزيف	Joseph Darnand
داستي دو لافيجري، إيمانويل	Emmanuel d'Astier de La Vigerie
داموقليس	Damoclès
دانزيغ	Danzig
دانكيرك	Dunkerque
دانيال، جان	Jean Daniel
دانيال، ميشال	Michèle Daniel
دلبوا، جورج	Georges Delboy
الدلو، عصر	Ère du Verseau
دَمْغَنَة	Cérébralisation
دنيوي	Séculier
دو لاتر دو تاسيني، جان	Jean de Lattre de Tassigny
دواي، جاك	Jacques Douai
دوريو، جاك	Jacques Doriot
دوسانتي، دومينيك	Dominique Desanti
دوستويفسكي، فيودور	Fiodor Dostoïevski
دوشارتر، فيليب	Philippe Dechartre
دوغا، إدغار	Edgar Degas
دوغول، شارل	Charles de Gaulle
دوما، ألكسندر	Alexandre Dumas
دي فوري، لوي-روني	Louis-René des Forêts
ديدرو، دوني	Denis Diderot

(ر)

(ز)

(س)

سرّ	Mystère
سِرَّانِيّ؛ سِرَّانِيَّة	Mystique; Mysticisme
سَرْدمانية	Bipédisation
سَرْنمةَ	Somnambulisme
سريالية	Surréalisme
سفاردي	Sépharade
سلام ألماني	Pax germanica
سلام روماني	Pax romana
سوديت	Sudètes
سوفارين، بوريس	Boris Souvarine
سولجنيتسين، ألكسندر	Alexandre Soljenitsyne
سولك، جوناس	Jonas Salk
سيرج، فكتور	Victor Serge
سيرورة	Processus
سيرولنيك، بوريس	Boris Cyrulnik
سيريزا، جان	Jean Ceresa
سيريزا، دون	Doune Ceresa

(ش)

شاكياموني	Sakyamuni
شانون، كلود	Claude Shannon
شاول	Saul
شُبُوب	Juvénilisation
شطط	Hubris
شكسبير، وليم	William Shakespeare
شمولية	Totalitarisme
شياوبينغ، دنغ	Deng Xiaoping

(ص)

صياغة خوارزمية	Algorithmisation

(ط)

طاقةَ	Energie
طريق	Voie

(ع)

عابر للمعارف	Transdisciplinaire
عدم اكتمال	Inachèvement
عدم قابلية التوقّع	Imprévisibilité
عدم يقين	Incertitude
عدمية	Nihilisme
عقلانية	Rationalisme
عَقْلَنَة	Rationalisation
عقيدة	Credo; Doctrine
علمانية	Laïcité

(غ)

غافو، قاعة	Gaveau
غروشنكا	Grouchenka
غريكو، جولييت	Juliette Gréco
غلاسنوست	Glasnost
غوديريان، هاينتس	Heinz Guderian
غولاغ	Goulag
غونزاليس، فيليبي	Felipe Gonzales

(ف)

فاشية	Fascisme
فالمي، معركة	Valmy
فان غوخ، فنسان	Vincent van Gogh
فاي، سيمون	Simone Weil
فرانس، أناتول	Anatole France
فرانكلين، روزاليند	Rosalind Franklin
فرانكوية	Franquisme
فردان، معركة	Verdun
فردية	Individualisme

فرسانجيتوريكس	Vercingétorix
فريدمان، جورج	Georges Friedmann
الفصح، عيد	Pâques
فصل	Disjonction
فكّ الأسطرة	Démythification
فلور، مقهى	Flore
فلوريو، جون	John Florio
فن العيش	Savoir Vivre
فوجيرار، مقبرة	Vaugirard
فوراستي، جان	Jean Fourastié
فوشي، دانيال	Daniel Faucher
فوكوشيما	Fukushima
فولتير	Voltaire
فون فورستر، هاينتس	Heinz von Foerster
فوهرر	Führer
فيازولي	Fiesole
فيان، بوريس	Boris Vian
فيرماخت	Wehrmacht
فيرمي، إنريكو	Enrico Fermi
فيرونيك	Véronique
فيشي، نظام	Vichy
فيشيّة	Vichysme
فيليبوفنا، ناستاسيا	Nastassia Filippovna
فيو كولومبي، مسرح	Vieux Colombier
فيوليت	Violette

(ق)

قابلية التوقّع	Prévisibilité
قَبْلِيّ	A priori
قرني	Séculaire
قشتالية	Castillan

لوثر، مارتن	Martin Luther
لوركا، فدريكو غارثيا	Federico García Lorca
لورين	Lorraine
لوفور، كلود	Claude Lefort
لوفيفر، هنري	Henri Lefebvre
لوكلير، فيليب دو أوتكلوك	Philippe Leclerc de Hauteclocque
لوموانيِ، بيار	Pierre Le Moign'
لوموند، صحيفة	*Le Monde*
لُونَا	Luna
ليباتان، مجلة	*L'Épatant*
ليسبيرانس، مقهى	L'Espérance
ليفورنو	Livourne
ليفي-مونتالشيني، ريتا	Rita Levi-Montalcini
لينداو	Lindau

(م)

ما-بعد-مَرَّانِي	Post-marrane
ما-تحت-الوعي	Subconscient
ماتشادو، أنطونيو	Antonio Machado
ماركس، كارل	Karl Marx
ماركساوي	Marxien
ماركسي	Marxiste
ماركسية	Marxisme
ماسكولو، ديونيس	Dionys Mascolo
ماوية	Maoïsme
مايلستون، لويس	Lewis Milestone
مُبَاشِر	Immédiat
محمد (ص)	Mahomet
محيط حيوي	Biosphère
مرُونَة	Résilience
مصادفة	Hasard
معلومةَ	Information

مفكر حر	Libre-penseur
مقاومة	Résistance
مناهضة السامية	Antisémitisme
منهج	Méthode
موبلان، روني	René Maublanc
موريسي	Mosseri
موسوليني، بينيتو	Benito Mussolini
مونبلييه	Montpellier
مونتسكيو	Montesquieu
مونتين، ميشال دو	Michel de Montaigne
موندوز، أندري	André Mandouze
مونو، جاك	Jacques Monod
ميتران، فرانسوا	François Mitterrand
ميدوز، دينيس	Dennis Meadows
ميرلو-بونتي، موريس	Maurice Merleau-Ponty
ميكالانجلو	Michel-Ange

(ن)

ناحوم	Nahoum
نانتير	Nanterre
نقد ذاتي	Autocritique
نورمبرغ	Nuremberg
نيوليبرالية	Néolibéralisme

(هـ)

هانت، جون	John Hunt
هانت، شانتال	Chantal Hunt
هايدغر، مارتن	Martin Heidegger
هتلر، أدولف	Adolf Hitler
هوركهايمر، ماكس	Max Horkheimer
هوغو، فكتور	Victor Hugo
هونيث، أكسل	Axel Honneth

هوية	Identité
هيبي	Hippie
هيراقليطس	Héraclite
هيغل، جورج فيلهلم فريدريش	Hegel
هيلانة، جزيرة القديسة	Sainte-Hélène

(و)

واتسن، جيمس ديوي	James Dewey Watson
وثوقية	Dogmatisme
وينر، نوربرت	Norbert Wiener
وطني، وطنية	Patriote; Patriotisme

(ي)

ياكوبسون، رومان	Roman Jakobson
يسوع	Jésus



إدغار موران @soramnqraa

دروس قرنٍ من الحياة telegram

الذين لا يعرفون الضّغينة يَنْجُونَ من صنوف الخَبَل.

الدّحضُ يكون بالمُحاجَّة لا بالتنديد.

التّعقيدُ الذي يسائل كلّ شيء أفضلُ من المذهب الذي يجيب عن كلّ شيء.

لكي يَنْعَمَ المرءُ بشيخوخةٍ طيّبة، عليه أن يحافظ على فضول الطفولة، وتطلعات اليفاعة، ومسؤوليات الكهولة، وأن يحاول، خلال شيخوخته، استخلاص تجربة الأعمار السابقة.

لن أكُفَّ أبدًا عن ملاحظة ما هو قاسٍ وعنيد وعديم الرحمة في الإنسانية، ولا عن ملاحظة ما هو مفزعٌ في الحياة، ولا أنا كافٍ بالمثل عن ملاحظة ما هو نبيل وكريم وطيّب في الإنسانية، وما تشتمل عليه الحياة من أمور فاتنة ومدهشة.

غالبًا ما نُضطر إلى مواجهة التناقض الإتيقي الآتي: احترام كلّ شخص إنساني وعدم الإساءة إليه في ما هو مقدّس بالنّسبة إليه، وفي الوقت نفسه ممارسة الروح النقدية التي يحرّكها عدم احترام المعتقدات المفروضة بوصفها معتقداتٍ مقدّسةً.

النّقدُ الذاتي وقايةٌ نفسيّة جوهريّة.

يجدر بنا ألاّ نكون واقعيّين بالمعنى المبتذل (التكيّف مع المباشر)، أو غيرَ واقعيّين بالمعنى المبتذل أيضًا (التملّص من قيود الواقع)، وإنما يجدر بنا أن نكون واقعيّين بالمعنى المعقّد: أعني أن ندركَ عدمَ اليقينِ الذي يكتنف الواقع، وأن نعلمَ أنه لا يزال ثمة ممكنٌ غير مرئيّ.

الفنُّ الذي ينسبُ إلى الغير كلماتٍ لم يقلْها، وأفكارًا لم تخطر على باله قطُّ، وينتقص مِنْ قَدْرِ شخصِه بأخسِّ الطرائق، قلت: هذا الفنّ قد بلغَ ذُراه.


ISBN: 978-603-91708-4-6

WWW.PAGE-7.COM

